

الجامعة الاميركية في بيروت
آراء الجاحظ في مناقب الامم ومثالبها :
عرض وتحليل .

T
204A

جمال فؤاد العطار

رسالة مقدمة الى الدائرة العربية
فني

الجامعة الاميركية في بيروت
لنيل درجة الماجستير في الادب العربي .

كانون الثاني ١٩٨٩

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

The Views of al-Jāḥiẓ concerning the Nations
As Reflected in His Works:
An Exposé and a Critique.

By

Jamāl Fu'ād al-Aṭṭār

A Thesis

Submitted in Partial Fulfillment of the
Requirements for the Degree of Master of Arts in
the Department of Arabic and Near Eastern Languages,
at the American University of Beirut
Beirut, Lebanon

January, 1989

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Title :

The Views of al-Jāhiz concerning the Nations
As Reflected in his works:
An Exposé and a Critique.

By

Jamāl Fu'ad al-Attār

Approved:

Sāmī Makārīm

Sami Makarim
Advisor

'Afīf Dimashqiyya

Afif Dimashkiyya
Member of Committee

Tarīf Bazzī

Tarif Bazzi
Member of Committee

Tarīf Khālidi

Tarif Khalidi
Member of Committee

Date of Thesis Presentation

January 6th, 1989.

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis release form

I, Jamal Fu'ad al-Attar

☐

authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals on request.

OR

☒

do not authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals.

Jamal F. Attar
Signature

January 25th, 1989.
Date

فهرس المحتويات

- ١- المقدمة . ١ - ٣ .
- ٢- الباب الاول : عرض لآراء الجاحظ في مناقب الامم المعتبرة ومثالبها .
 - (أ) الفصل الاول - العرب : ٥ - ٥١ .
 - (ب) كلمة في سائر الامم المعتبرة : ٥٢ - ٥٣ .
 - (ج) الفصل الثاني - الهند : ٥٤ - ٦١ .
 - (د) الفصل الثالث - الفرس : ٦٢ - ٧٤ .
 - (هـ) الفصل الرابع - الروم : ٧٥ - ٨٠ .
 - (و) الفصل الخامس - الترك : ٨١ - ٩٢ .
 - (ز) الفصل السادس - الصين : ٩٣ - ٩٥ .
 - (ح) الفصل السابع - اليونان : ٩٦ - ١٠٤ .
- ٣- الباب الثاني : عرض لآراء الجاحظ في الامم غير المعتبرة .
 - (أ) الفصل الاول - الصقالبة : ١٠٦ - ١١٠ .
 - (ب) الفصل الثاني - اصناف السودان : ١١١ - ١٢٠ .
- ٤- الباب الثالث : الخاتمة . مقاييس الجاحظ في الحكم على الامم وتحليل آرائه في هذا الموضوع : ١٢٢ - ١٢٨ .
- ٥- ثبت مصادر الرسالة ومراجعتها : ١٢٩ - ١٣٣ .

المقدمة

ان الفترة الزمنية الواسعة التي عاشها الجاحظ من عمر الخلافة العباسية لهي جديرة حق بالدراسة. فالجاحظ الذي عاش من (١٦٠ هـ / ٧٧٧م - ٢٥٥ هـ / ٨٦٩م) (١)، عاصر احد عشر خليفة هم : السدي والهادي والرشيد والأمين والأمين والمعتصم والواثق والمتوكل والستصر والمستعين والمعتز. ولم تكن طلاقة الجاحظ سلبية برجال البلاط العباسي بل كانت طلاقته وثيقة بحيث تهيأ للجاحظ كما يقول طه الحاجري ان يكون " ضرورة من ضرورات الدولة ، يساهم بأدبه وعلمه وقدرته الكلامية في تناول بعض المسائل التي كانت تعنيها وتشغل بالها. (٢) ولعل الجاحظ كان اشبه بمستشار الشوعيون الداخلية خلال تلك الفترة الواسعة من عمر الخلافة. وان رسائله الهادفة الى توجيه رجال الدولة كالتي ألفها في موضوع الامامة (٣) حين وقعت الفتنة بين الامين والأمين ،

(١) انظر :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Al-Djāhiz", by Charles Pellat.

وانظر ايضا :

Charles Pellat, The Life and Works of Al-Djāhiz, (University of California Press, 1969), p. 3.

(٢) طه الحاجري ، الجاحظ : حياته وآثاره (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٠) ، ص ٣٦٠ .

(٣) الجاحظ ، " رسالة في استحقاق الامامة " و " رسالة الجوابات في الامامة " في : رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج (القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٦٤ - ١٩٧٩) ، ج ١ (١٩٧٩) ، ص ٢٠٧ و ٢٨٥ . وانظر " رسالة الجاحظ في الحكمين وتصويب امير المؤمنين علي بن ابي طالب " ، تحقيق شارل بلا ، مجلة الشرق (بيروت) ، السنة ٥٢ ، ج ٥ ، (١٩٥٨) . وانظر مقالة الستشرق قاهريل فيراند حول فتنة الامين والأمين ولدى هارون الرشيد التي حصلت في عام ١٩٥ هـ / ٨١٠م في :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Al-Amīn," by Gab. Ferrand.

او موضوع تأليف قلوب جند الخلافة (١) او التي كتبها في توجيه القاضي ابن ابي
دواد (٢)، تدل على ان رأى الحاجرى السابق ان الجاحظ كان ضرورة من ضرورات
الدولة العباسية ليس بعيدا عن الحقيقة كثيرا .

ومن خلال الفترة الطويلة التي عاشها الجاحظ ، استطاع ان يطلع علمنا
بآراءه لا تعكس نظرة العرب في انفسها من حيث هي امة معتبرة فحسب وانما فسي
عدد لا بأس به من الامم المعتبرة كالفرس والروم والهند والصين والترك واليونان
فضلا عن اسم السودان وامة الصقالبة (٣) . والجدير بالذكر ان لفظي الجنس والامة
في ادب الجاحظ هما لفظان مترادفان لحقيقة واحدة ، وعادة ما يأتي هذا المعنى
الواحد بهذين اللفظين او بالفاظ اخرى مثل العالمين - الناس - العالم وسكانه -
الدنيا واهلها - الجيل - الصنف ، وينطبق ذلك على سائر كتابات الجاحظ التي
وصلتنا .

(١) اى رسالته " في مناقب الترك وعامة جند الخلافة " التي كتبها الى الفتح بن
خاقان حين دخل الترك رافدا ساعدا الى جسم الدولة العباسية ، مع ما
وافق ذلك من مشاكل . انظر رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٥ - ٨٦ .

(٢) اى رسالة " المعاش والمعاد " التي كتبها لابن ابي دواد ، وزير التوكيل
الستوفي ٢٣٩ هـ / ٨٥٣ - ٨٥٤ م . انظر المصدر نفسه .

(٣) تجدر الاشارة الى ان الجاحظ لا يعد الصقالبة واصناف السودان من الامم
المعتبرة ، باستثناء امة الهند .

الباب الاول

=====

عرض لآراء الجاحظ في مناقب الامم المعتبرة ومثالبها

=====

الفصل الاول

=====

العرب

=====

مناقب العرب

تناول الجاحظ في نظرتة في العرب مناقبها ومثالبها . اما المناقب التي جعلتها في رأيه تفضل الامم جمعاء ، فهي ان النبي محمدا افضل بني هاشم ، وبني هاشم افضل قريش ، وقريشا افضل قبائل العرب . وسنبداً بحثنا في العرب بذكر المحاسن التي تمتاز بها عن غيرها من الامم ، ثم نذكر المحاسن التي تمتاز بها قريش على العرب ، وبعد ذلك نذكر المحاسن التي يمتاز بها بنو هاشم على قريش ، ثم نذكر الخصال التي فضل بها محمداً بني هاشم .

وقد ذكر الجاحظ هذه المميزات متفرقة في مختلف آثاره (١) ، فكان لابد من اظهار هذه المميزات ومحاولة تنظيها مجتمعة بالرجوع الى جميع هذه الآثار .

-
- (١) اما آراؤه في العرب فقد وردت في البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، ٧ اجزاء ، الطبعة ٣ ، (بيروت : دار احيا التراث العربي ، ١٩٦٩) ، و البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، (القاهرة ، دار الكتاب المصري ، ١٩٤٨) ، و رسائل الجاحظ ، وكتاب الاخبار وكيف تصح . واما آراؤه في قريش ، فقد وردت خاصة في كتاب في الاوطان والبلدان و كتاب في المعلسين و رسالة في مدح التجارة ضمن رسائل الجاحظ كما وردت في البيان والتبيين . واما آراؤه في بني هاشم فقد وردت في رسائل الجاحظ وكتاب فضل بني هاشم على عبد شمس في رسائل الجاحظ ، تحقيق حسن السندوبي ، (القاهرة : المطبعة الرحمانية ، ١٩٣١) وفي رسالة تفضيل بني هاشم على من سواهم ، مجلة لغة الغرب (بغداد) السنة ٩ ج : ٦ ، ٧ (١٩٣١) ، وكتاب البخلاء . واما آراؤه في النبي محمد فقد وردت في المصادر المذكورة اعلاه وخاصة في البيان والتبيين و رسائل الجاحظ . وحين نذكر لاحقاً رسائل الجاحظ فالمقصود بها تلك التي حققها عبد السلام هارون ، واما حين نستخدم الرسائل التي حققها السندوبي فسوف نميزها عن الاولى بذكر السندوبي بين قوسين .

على رأس الخيرات المقسومة من الله (١) ، المفاضة على الخلق ، تتف فضيلة البيان العربي او حظ العربية التي فضلت العرب بها الامم جميعا ، وذلك يعود لسببين : الاول ان البيان العربي اهل العرب لاستقبال التنزيل القرآني دون سائر الامم ، وقد قال الجاحظ في ذلك :

"... ولفضل الفصاحة وحسن البيان ، بعث الله تعالى افضل انبيائه واكرم رسله من العرب ، وجعل لسانه عربيا ، وانزل عليه قرآنا عربيا كما قال تعالى (بلسان عربي مبين) (٢)"

اما السبب الثاني الذي جعل العرب تفضل الامم ، فهو ان فضيلة البيان العربي لم تؤهل العرب لاستقبال التنزيل فحسب وانما تم بها افتتاح الخطاب الالهي لجميع الامم بعدما تم للعرب ما دعاه الجاحظ " حظ العربية " (٣) قال :

"... انما خاطب (٤) العرب ، وهم الحجة على جميع اهل اللغات ، ثم تصير تلك المخاطبة لجميع الامم بعد الترجمة على السنة هو لا العرب ، الذين بهم بدأت المخاطبة لجميع الامم : (٥)"

فللعرب ان تغفر على سائر الامم اذ اصبحت كما يقول الجاحظ بذلك العسـط او الخطاب ، الحجة على جميع اهل اللغات ، اى حجة الله على خلقه حين فتح امامها فرصة قيادة الامم وهدايتها الى المعاني المبتوثة في ذلك الخطاب لانه بلغتها ونهـبها خاطب الله العرب والعجم .

(١) اللفظ للجاحظ : انظر " رسالة كتمان السر وحفظ اللسان " في رسائل الجاحظ ١ : ١٧١ و " رسالة الوكلاء " ، المصدر نفسه ، ٤٠ : ١٠٣ . وفي الاخيرة يقول الجاحظ : " ابسى الله الا ان يقسم نعمه بين طبقات جميع عباد ، قسمة عدل . "

(٢) الشعراء : ١٩٥ . انظر الجاحظ في " رسالة تفضيل النطق على الصمت " ، رسائل الجاحظ ، ٤٠ : ٢٣٧ .

(٣) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ص ١٢ .

(٤) يعود الضمير المستتر في " خاطب " الى الله .

(٥) الجاحظ ، " كتاب الحيوان " ، ٧ : ٢١٣ - ٢١٤ .

بعد فضيلة البيان العربي* الذي ليس كمثلها بيان* (١) او اللغة التيليس كمثلها في السعة لغة (٢) ، رأى الجاحظ ان العرب فاقت الام لتمييزها بطائفة من الخصائص الاجتماعية هي من ذلك البيان قايت ومادته . على رأس تلك الفضائسل ما ساء الجاحظ* احكام العرب شأن المناقب والمثالب (٣) ، كأنما الجاحظ يوصي* بذلك الى ان العرب ما كان ليم لها حظ التنزيل لولا تمتعها بطائفة من الخصائص يسوقها ليهن على كونها تمثل البذرة الصالحة المرتقة للمجتمع الاسلامي . قال مشيدا بالدور الاصلاحى الاجتماعى للعرب ولفتها :

... وليس في الارض قوم اعنى بدم جليل القبح ودقيقه ومدح دقيق الحسن وجليه من العرب ، حتى لو جهد افطن البرية واعقل الخليقة ان يذكر معنى لم يذكره ، لما اصابه ... ولهم حظ العربية مع الحفظ لانسابهم ومحاسن اسلافهم وساوى* اكاثهم ، للتماير بالقبح ، والتفاخر بالحسن ، ليجعلوا ذلك عوناً لهم على اكتساب الجميع واصطناع المعروف ، ومزجراً لهم عن اتيان القبح وفعل العار ، ولموددوا اولادهم بما اديهم به آباؤهم... (٤)

وقبل تعداد بقية الخصال التي فضلت بها العرب العجم ، نشير الى ان هذه الخصلة العربية المتمثلة في ولعها بالمناقب وذمها المثالب عدها الجاحظ من جملة الخيرات المقسومة من عند الله للخلق عامة والعرب خاصة ، ولا سيما الذين يمثلون في نظر الجاحظ ، وفي تلك المرحلة من التاريخ (اى مرحلة ما قبل الاسلام) ، البقية الثابتة على دين ابراهيم (٥) ، اى انها غير موجهة

(١) الجاحظ ، * كتاب الاخبار وكيف تصح* ٩٢ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الجاحظ ، * رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة* ، رسائل الجاحظ ،

١ : ٦٩ - ٧٠ .

(٤) الجاحظ ، * كتاب الاخبار وكيف تصح* ، ص ٩٢ .

(٥) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٦ : ٢٢٣ .

اصلا للبقية غير الثابتة على دين ابراهيم والتي خصها الجاحظ بنقد دقيق . ثم ان الجاحظ ما انفك يلحظ خضوع الام لتسيير الهي كلما دار الحديث حول فضائل الام فهناك تدخل الهي واضح في تلوين الام بجملته الخيرات المقسومات اصلا من عنده والمفاضة على جميع خلقه دون ان يكون ذلك التدخل حكرا للعرب لانه يشمل الام جميعا . قال :

"... ثم اعلم بعد هذا ان كل امة وقرن وكل جيل وبني اب ، وجدتهم قد برعوا في الصناعات ، وفضلوا الناس في البهائم ، او فاقوهم في فني الاداب ، وفي تأسيس الملك ، او في النصر بالحرب ، فانك لا تجدهم في الغاية وفي اقصى النهاية ، الا ان يكون الله تعالى قد سخرهم لذلك المعنى بالاسباب ، وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور ، وتصلح لتلك المعاني... (١)"

ويرى الجاحظ ان هذه الخصائص او الخيرات التي تحققت للعرب انما تمت بتسخير الهي بترافق مع حرية الارادة البشرية . قال :

"... وكل صنف من الناس مزين عندهم ما هم فيه ، وسهل ذلك عليهم... فسخرهم على غير اكرام ، ورغبهم من غير دعا ،... والا سماء هذا وليسة ، والصناعات مباحة ، والتاجر مطلقة... ولكنها مطلقة في الظاهر ، مقسمة في الباطن... (٢)"

ولقد جمع الجاحظ قدرا كبيرا من هذه الخصائص بقوله الذي يفيد التوافق المذكور والذي جعل نفوس العرب اكبر وهمها ارفع من سائر الامم :

"... والعرب لم يكونوا تجارا ولا صناعا ولا اطباء ولا حاسباء... ولا اصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية . ولم يكونوا اصحاب جمع وكسب ولا اصحاب احتكار لما في ايديهم . ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة ولم يستغنوا الفنى الذي يورث البؤسة ، ولم يحتلوا ذلا قط فيميت قلوبهم ، ويصغر عندهم انفسهم . وكانوا سكان فياف ، وترهبة العسرا ،

(١) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٧٣ .

(٢) الجاحظ ، "رسالة في حجج النبوة" ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢٤٢ - ٢٤٤ .

لا يعرفون الغمق ولا اللثق ولا العفن ولا التخم. اذهان حداد ونفوس مفكرة ، فحين حللوا حدّهم ، ووجهوا قواهم لقول الشعر وبلاغة المنطق وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام ، بعد قيافة الاثر (١) ، وحفظ النسب (٢) ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ، وتعريف الانواء (٣) والبصير بالخيال (٤) والسلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكل سموع والاعتبار بكل محسوس ، واحكام شأن المناقب والمثالب ، بلغوا في ذلك الغاية ، وحازوا كل امنية . وبمعز هذه العلل صارت نفوسهم اكبر وهمسهم ارفع من جميع الامم وافخر ولأياهم احفظ واذكر. (٥)

-
- (١) اورد الجاحظ هذه الخاصة بقوله " وقيافة الاثر مع قيافة البشر " في كتابه " الاخبار وكيف تصح " ص ٩١ . وقال الجاحظ ان القيافة لدى العرب شأن فطري لا يكتسب " نجدها في بني مدلج ثم في خاص من خثعم وكذلك خزاعة ، وهي في قريش اقل وهي في بني اسد اقل . " انظر الجاحظ ، كتاب الترميم والتدوير ، تحقيق شارل بلا (بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٥) الفقرة ١٧٦ الصفحة ٩٢ .
- (٢) اورد الجاحظ هذه الخاصة بقوله " وللعرب جودة الحفظ لانسابهم وآثرهم الذي لا يقدر احد على مثله وان دونه وغلده في كتبه . " انظر : " كتاب الاخبار " ، ص ٩٣ . ورأى الجاحظ ان خصلة الحفظ من الخصال التي فحلت العرب بها العجم التي لا تحوط الانساب ولا تتحفظ المقامات ، انظر الجاحظ ، البيان ، ص ١٦١ ، و " رسالة مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٢١ حيث يذكر ان العرب امة امية والعجم امة كتابية ، والحاسب والاضداد ، تحقيق فوزى عطوى ، (بيروت ، دار صعب ، ١٩٦٩) ص ٣ .
- (٣) او المعرفة بعوامل الطبيعة التي يرجعها الجاحظ في كتاب الحيوان ، ج ٦ : ٢٩ - ٣١ الى حاجة العرب الى تلك المعرفة ودقة اذهانها وجسودة حفظها وطول وقوع بصرها . انظر ايضا " كتاب الاخبار وكيف تصح " ص ٩٣ .
- (٤) قال الجاحظ في ذلك ايضا : " وليس في الناس اشد عجا بالخيال من العرب ولا اكثر لها ارتباطا ولا اهما لمن لا يتخذها . " انظر " كتاب الاخبار وكيف تصح " ، ص ١٠٣ .
- (٥) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٦٩ - ٧٠ .

وفي موضع آخر حدد الجاحظ اسما^١ الام التي تفوقت العرب عليها ، كما ذكر
خصائص اخرى فاقت العرب بها هذه الام قال :

"... وللعرب من صدق الحس وصواب الحدس وجودة الظن وصحة
الرأى ما لا يعرف لغيرهم . ولهم العزم الذى لا يشبهه عزم ، والصبر
الذى لا يشبهه صبر (١) ، والجود (٢) والانفة والحمية التي لا يدانيهم
احد فيها ، ولا يتعلق بها رومي ولا هندي ولا فارسي ، لان هذه الام
كلها باختلاف العرب شيئا... (٣)"

والعرب ان شاركت بعض الام في دائرة الخيرات (٤) المقسومة من الله ، فشاركتها
تفيد في نظر الجاحظ التفوق في درجة انتشارها وتامها وكثرتها لا المساواة (٥) ، التي
افرد لها بحثا مستقلا ، كما تفلب على المساواة . فالعرب فاقت سائر الام بخصائص هي من
جنس خيرات الام كي يكون التفوق في محله ، فكأن الحظ الاوفر من الخيرات المفاضلة

(١) عبر الجاحظ عن صبر العرب ، حين وصفها بقلّة الطعام وشظف العيش والجهد
الذى لم يسمع به في امة من الام^٢ راجع : الجاحظ ، كتاب البخلاء ص ٩٣ ، ٩٨ ،
١٠٦ ، ٢٠١ .

(٢) راجع المصدر السابق ، ص ٢٢٣ . واذا كان الكرم والضيافة خصلة عربية فسلان
البخل قدر اهل مرو والاهواز من بني فارس وقدر للروم ايضا . انظر : البخلاء
ص ١٣ ، ١٤٢ ، ١٧٨ .

(٣) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ، ص ٩٢ .

(٤) كاستواء الام المعتبرة في التحلي بفضيلة الحنين الى الوطن . انظر الجاحظ في
" رسالة في الحنين الى الاوطان " ، رسائل الجاحظ ، ٢ : ٤٠٧ ، واشترك الزوج
مع العرب في التحلي بفضيلة الكرم . انظر الجاحظ ، " كتاب فخر السودان على
البيضان " ، رسائل الجاحظ ، واشترك الترك والعرب في معاني الفروسية
والنجدة كما في " رسالة مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٥ - ٨٦ .

(٥) في الفصل الاخير من هذه الرسالة اشارة الى رأى الجاحظ في بعض المواطن
التي تساوت فيها العرب والعجم .

على الخلق قد قسم للعرب (١) دون حرمان سائر الامم منها وخاصة المعتبرة التي لم يخف الجاحظ اعجابه بها كما سنرى في حينه من الرسالة .

ويواصل الجاحظ تعميماته لاظهار فضل العرب على غيرها فينسب الى صبيان العرب ونسائها وعواصمها تفوقاً على نظرائها في سائر الامم . قال في ذلك :

"... وليس في الارض صبيان في عقول الرجال غير صبيانهم... واما العوام من اهل ملتنا ودعوتنا ولغتتنا وادبنا واخلاقتنا فالطبقة التي عقولها فوق تلك الامم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا ، على ان الخاصة تتفاضل فسي طبقات ايضا... واذا كان نساء العرب في الجملة اعقل من رجال العجم فما ظنك بالمرأة منهم اذا كانت مقدّمة فيهم ؟...." (٢)

ويوضح الجاحظ في موضع آخر ان للحظّ دورات بين الامم ، فهذه الخصال التي لصبيان العرب ونسائها ورجالها قد سبقهم اليها من اجري عليه الله الطلک والنسوة من قبل . والعرب بدورها تفوق الامم نظرا لانها اصبحت تجمع الآن فضلي النسوة والطلک ، قال :

"... فقد علمنا ان العجم حين كان فيهم الطلک والنسوة ، كانوا اشرف من العرب ، وان الله لما حول ذلك الى العرب صارت العرب اشرف منهم." (٣)

ولا يعني ذلك ان الجاحظ يرى ان جميع افراد الجنس العربي يتمتعون بالخصائص السائرة عن المجموع . قال : " وليس كل اعرابي شاعرا وقائفا... " (٤) . جل ما في الامر ان خصال العرب المذكورة اعم واتم ، وهي فيهم اظهر واكثر . (٥)

(١) وذلك في مرحلة محددة من اطوار الامة ، هي مرحلة تمتعها بالطلک والنسوة . انهما المرحلة التي ساءها تلميذ الجاحظ ، التوحيدى ، في كتابه الانتاع " ايام النشأة " . انها مرحلة السيادة لدى الامة التي ينبغي تحرر حسانتها ومناقبتها فيها دون غيرها من المراحل . انظر : التوحيدى ، الانتاع والموانسة ، تحقيق احمد امين واحمد الزين (بيروت : دار مكتبة الحياة) ١ : ٧٣ .

(٢) انظر : الجاحظ في " كتاب الاخبار وكيف تصحّ المجلة الآسيوية " ، ص ٩٣ ، وكتاب البهان والتبيين ١ : ١٣٧ ، وكتاب الحيوان ١ : ٢٨٦ .

(٣) الجاحظ " رسالة في النابتة " ، رسائل الجاحظ ، ٢ : ٢١ و " رسالة في حجج النبوة " ، المصدر نفسه ، ٣ : ٢٤٥ حيث يذكر ان العرب للطلک مسخرون .

(٤) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٧٣ .

(٥) المصدر نفسه .

باختصار ، ان العرب فاقت الامم بسمة البهتان وخصائص اجتماعية وخلقسية هيأتها لاستقبال التنزيل . فزيادة الى كونها صاحبة " التعابير بالمثالب والتفاخر بالمناقب بالمشهور المرسل بعد الموزون المعدل ، بلسان امضى من السنان وارهف من السيف الحسام ؛ (١) مع ما يعكسه ذلك من تهينة محكمة لاساءة المجتمع الاسلامي ، فهي امسة اعتمدت " على حفظ الاميين الذين لا يتكلمون على الكتب المدونة والخطوط المطرسة ؛ (٢) مع ما يعكسه هذا القول من استعداد لحفظ التنزيل في الصدور . وقد اشار الجاحظ الى هذه النقطة التي تمت للعرب بقوله :

"... ان هذه العرب في جميع الناس كمقدار القرحة في جميع جسد الفرس . فلولا ان الله رقى عليهم ، فجعلهم في حاشية ، لطست هذه العجبان آثارهم..." (٣)

وفي هذا تأكيد لمقولته التي ترى ان يد الله تلازم جميع الخيرات المفاضة على خلقه ، " كحظ العربية " المقسوم للعرب ، ذي الوجة الثلاثة : البهاني والخلقي والاعلامي .

٢- ما تفضل به قريش العرب

تميزت قريش في نظر الجاحظ على غيرها من العرب بخصال معينة وذلك " تعبئة لها لكل جسم وترية لها لكل عظيم..." (٤)

من هذه الخصال اعتداد قريش باصلها وحسبها ، فاهلها " لقاح ، لم تؤد اتاوة قط ، ولم تطؤها الطوك بالتطليك " (٥) كما لم يصبها في الجاهلية سبا . قال :

"... وما بانت به قريش من سائر العرب ، انما لم نر قريشاً انتسب الى قبيلة من قبائل العرب ، وقد رأينا في قبائل العرب الاشراف رجالا السس الساعنة ينتسبون في قريش... وما بانت به قريش انها لم تلد في الجاهلية

(١) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ١٨٠ - ١٨١ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الجاحظ ، البهتان والتبيين ، ٢ : ٧٢ - ٧١ .

(٤) الجاحظ ، " كتاب في المعلمين " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٤٦ .

(٥) الجاحظ ، " كتاب في الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٢٠ .

ولدا قط لغيرها . . . وما بانث به قريش من سائر العرب ان الله
جا* بالاسلام وليس في ايدي جميع العرب سبية من جميع نسا* قريش ،
ولا وجدوا في جميع ايدي العرب ولدا من امرأة من قريش . - (١)

ومن هذه الخصال ايضا اتصاف قريش بالحماسة الدينية ، واستثنائها بخدمة
البيت العتيق ، ما خولها سيادة القبائل وذلك لاجتماع الاخلاق والالفاظ والعقول
والاحلام فيها ، الى جانب عدم مشاركتها العرب في شي* من جفاتها او غلظ شهواتها .
قال :

" . . . وما بانث به قريش من سائر العرب انها لم تكن تزوج احدا
من اشراف العرب الا على ان يتحصن ، وكانوا يزوجون من غير ان يشترط
عليهم : وهي عامر بن صعصعة وثقيف وخزاعة ، والحارث بن كعب ،
وكانوا ديانين ، ولذلك تركوا الغزولما فيه من الغصب والغشم واستحلال
الاموال والفروج . ومن العجب انهم مع تركهم الغزو ، كانوا اعسسز
وامثل . . . ومن العجب ان كسبهم لما قل من قبل تركهم الغزو ، ومالوا
الى الايلاف والجهاد ، لم يعترهم من بخل التجار قليل ولا كثير ، والبخل
خلقة في الطباع ، فاعطوا الشعراء كما يعطي الطوك ، وقرؤا الاضياف ، ووصلوا
الارحام ، وقاموا بنواثب زوار البيت . . . ومن خصالهم انهم لم يشاركوا
العرب والاعراب في شي* من جفائهم وغلظ شهواتهم ، وكانوا لا يأكلون
الضباب ولا شيئا من الحشرات ، الا ترى ان النبي - صلى الله عليه وسلم -
اتوا خوانه بضب فقال : " ليس من طعام قومي " . . . وكانت العرب قاطبة
ترد مكة في ايام الموسم ، وترد اسواق عكاظ وذا الحجاز ، وتقيم هناك
الايام الطوال ، فتعرف قريش ، لاجتماع الاخلاق لهم والشمايل والالفاظ ،
والعقول والاحلام ، وهي وادعة وذلك قائم لها ، راهن عندها في كل عام ،
تتملك عليهم فيقتسمونهم ، فتكون غطفان للسيرة ، وبنو عامر لكذا وتمم لكذا ،
تغلبها المناسك وتقوم بجميع شأنها . . . واهل مكة حمس ولغاح لا يؤدون
اتاة ، ولهم السقاية ، ودار الندوة ، والرفادة والسدانة . - (٢)

(١) الجاحظ ، المصدر نفسه ، ٤ : ١١٤ - ١١٥ . والقبائل المذكورة هي التسي
حسستها قريش (عدا ثقيف وخزاعة) انظر المصدر نفسه ص ١٢٧ . والملاحظ
ان الجاحظ في النص التالي استدرك مقولته الاخيرة حين قال : ان شرط التحصن
الديني لرجال القبائل العربية بامكانه ان يسمح لهم الانتساب من قبيلة قريش .
وهذا الاستثناء فاته في النص الاول المذكور .

(٢) الجاحظ ، المصدر نفسه ، ٤ : ١١٥ - ١١٩ .

وما بانته به قريش سائر العرب اتصافها بالحظ الا وفر من الفصاحة قال :

"... قال النبي صلى الله عليه وسلم : "انا افصح العرب بيد اني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر". ولولم يكن ما عددنا من هؤلاء الاحياء الا قريش وحدها ، لكان فيها مستغنى عن غيرها . وكفاية عن من سواها ، لان قريشا افصح العرب لسانا وفضلها بهانا ، واحضرها جوابا ، واحسنها بديهة ، واجمعها عند الكلام قلبا . (١)

وقد عبر الجاحظ عن فضل قريش البهاني بقوله ايضا :

"... قال معاوية يوما : " من افصح الناس ؟ " فقال قائل : " قوم ارتفعوا عن لخلخانية العراق ، وتيامنوا عن عنينة تميم وتياسروا عن كسكة بكسر ، ليس لهم غمضة قضاة ولا طحطمانية حسير . " قال : " من هم ؟ " قال : " قريش . " (٢)

وقد لاحظ الجاحظ ارتباطا بين فصاحة التنزيل القرآني وفصاحة الوسط القرشي الذي استقبله ، انسجاما مع نظرت العامة في هذا الشأن التي ترى تناسبا بين النبوة والوسط البشري الذي تنزل فيه قال :

(١) الجاحظ ، "رسالة في تفضيل النطق على الصمت" ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٣٨ و "في الاوطان والبلدان" ، المصدر نفسه ، ٤ : ١١٧ . واللاحظ اعلاه ان الجاحظ فهم كلمة "بيد" بمعنى "من اجل" . وهذا رأى ابن هشام (ت ١٢٦٠م) في مغني اللبيب عن كتب الاطريب (دمشق : دار الفكر ، ١٩٦٤) ج ١ : ١٢٢ ، ورأى الزبيدي (١٧٣٢ - ١٧٩١م) في تاج العرويس (مصر : المطبعة الخيرية ١٢٨١هـ) ج ٢ : ٣٠٨ ورأى الفيروزبادي (١٣٢٩ - ١٤١٤م) في القاموس المحيط (القاهرة ، ١٢٨١هـ) ج ١ : ٣٠٤ . والمصدران الاخيران اجازا ان تأتي بيد بمعنى "غير" ايضا . وقد حفلت المصادر اللغوية التالية بالانجاء الآخر لمعنى بيد . انظر ابن الاثير (١١٤٩ - ١٢١٠م) في النهاية في غريب الحديث (مصر : الطبعة العثمانية ، ١٣١١) ج ١ : ١٠٣ وابن منظور (١٢٣٢ - ١٣١١م) في لسان العرب (بيروت ، دار لسان العرب) ج ١ : ٢٩٤ وكذلك الجوهرى (ت ١٠٠٣م) في الصاحح (بيروت : دار العليسم للتراث ، ١٩٧٩) ج ٢ : ٤٥ وابن مالك في الافية (راجع قاموس Lane ، بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٦٨) ج ١ : ٢٨١ .

(٢) الجاحظ ، البيان والتهيين ، ٣ : ٢١٢ - ٢١٣ .

"... ولما كان اعجب الامور عند قوم فرعون السحر... بعث الله موسى عليه السلام على ابطاله وتوحيته وكشف ضعفه واظهاره... وكذلك زمن عيسى عليه السلام كان الاغلب على اهله وعلى خاصة علماء الطب فارسله تعالى باحيا الموتى ان كانت ظايتهم علاج المرضى... وكذلك دهر محمد صلى الله عليه وسلم كان اغلب الامور عليهم، واحسنها عندهم، واجلها في صدورهم، احسن الهيمان ونظم ضروب الكلام، مع علمهم له، وانفرادهم به. فحين شاعت البلافة فيهم، وكثر شعراؤهم وفساق الناس خطباؤهم، بعث الله عز وجل، فتحداهم بما كانوا لا يشكون انهم يقدرين على اكثر منه... فمن احكم الحكمة ارسال كل نبي بما يفهم اعجب الامور عندهم ويبطل اقوى الاشياء في ظنهم". (١)

وما بانث به قریش العرب، ممارستها التجارة بطريقة مغايرة لسلوك تجار العالم آنذاك. فعلى الرغم ان قریشا كانت تسكن بواد غير زى زرع، وتحمل مشقات التجارة فان ذلك لم يزد لها الا جودا وكما. قال الجاحظ:

"... وليس قولهم: قرشي لقولهم: هاشمي وزهري وتيمي؛ ولكنه اسم اشتق لهم من التجارة والتقریش، فهو افخم اسمائهم واشرف انسابهم، وهو الاسم الذى نوه الله تعالى به في كتابه (٢)... فلما تركوا الفسزو لم تبق مكسبة سوى التجارة، فضربوها في البلاد الى قيصر بالروم، والى النجاشي بالحيشة، والى القوقس بحصر، وصاروا باجمعهم تجارا خلطا. وقد تعجب الناس من ثبات قریش وجزالة عطائهم واحتمالهم المؤن الغلاظ في دوام كسبهم من التجارة. فكان في ثبات جودهم العالي على جود الاجواد وهم قوم لا كسب لهم الا من التجارة عجب من العجب... فلوانه كان معهم من الفضل ما يبهر العقول ومن المجد ما تخرج فيه العيون، لما اصرح طبائعهم الشئ الذى يفسد جميع الامة... فلما كانوا بواد غير زى زرع ويحتاجون الى الاقوات، واقامة القرى، لم يجدوا بدا من ان يتكلفوا ما يعيشهم ويصلح شأنهم، فاخذوا الايلاف (٣) ورحلوا

(١) الجاحظ، "رسالة في حجج النبوة"، رسائل الجاحظ، ٣، ٢٧٨-٢٨٠.

(٢) انظر سورة قریش.

(٣) الايلاف المذكور هو الذمام والعهد والاجارة. كان الاخوة الاربعة هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل، بنو عبد مناف، يقيمون قریشا. اما هاشم فانه اخذ حبلا من ملك الروم واخذ نوفل حبلا من كسرى واخذ عبد شمس حبلا من النجاشي.

الى الملوك بالتجارات . (١)

اي ان التجارة آنذاك لم تخل من مشقة وكانت تعرض صاحبها للمذلة * فان
التاجر قد استشعر الذل وتغشى ثوب المذلة * (٢) وقد آتت التجارة - كما حدث
مع تجار الابلّة ومحتكرى اهل الحيرة الى ان ثلثت في اعراضهم وانتهكت من مرواّتهم ،
ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لتجار قريش . فالتجارة اورثت في نفوس القرشيين من
السعة بقدر ما اورثت معاصريهم من الضيق . قال الجاحظ في ذلك :

"... ولو كانت علتهم في ذلك كعلة تجار الابلّة ، ومحتكرى اهل الحيرة ،
لثلثت دقة التجارة في اعراضهم ، ولنهلك سفخ التريح من مرواّتهم ،
ولصغر ذلك من اقدارهم في صدور العرب ، ولوضع من علّوهم عند اهسل
الشرق . وكيف وقد ارتحلت المهم الشعراء كما ارتحلت الى الملوك العظام ،
فأسنوا لهم العطية ، ولم يفتروا عن غاية ، فسقوا الحبيج واقاموا القسرى
لزوار الله تعالى ، وهم بواد غير ذي زرع ... ولقد اورث ذلك صدورهم
من السعة بقدر ما اورث غيرهم من الضيق . ومن قاس تجار الكرخ وباعته ،
وتجار الاهواز والبصرة ، على تجار قريش ، فقد اخطأ مواضع القياس وجهل
اقدار العلل . فانظر كم بين علتهم وعلة غيرهم ... ومن العجب ان كسبهم
لما قلّ من قبل تركهم الغزو ، وما لوا الى الايلاف والجهاد ، لم يعترهم
من بخل التجار قليل ولا كثير ، والبخل طقة في الطباع ... (٣)

وانسجاما مع نظرة الجاحظ التي ترى تناسبا بين النبوة والوسط البشري الذي
استقبلها ، لاحظ الجاحظ ان النبي محمدا قد مارس التجارة الشائعة بين قومه

= واخذ المطلب حبلا من ملوك حمير . فكان تجار قريش يختلفون الى هذه الامصار
بحبال هو لا الاخوة ، فلا يتعرض لهم . انظر الجاحظ ، كتاب في العللين ،
رسائل الجاحظ ، ٤٧ : ٣ .

(١) انظر الجاحظ ، رسالة في مدح التجارة ، رسائل الجاحظ ، ٢٥٦ : ٤ ، كتاب
في الاوطان والبلدان ، المصدر نفسه ، ١١٦ : ٤ ، ١٢٦ : ١٢٧ . وكتاب في
العللين ، المصدر نفسه ، ٤٦ : ٣ .

(٢) الجاحظ ، كتاب في العللين ، رسائل الجاحظ ، ٤٩ : ٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ٤٥ : ٣ ، ٤٧ : ٤ ، وكتاب الاوطان والبلدان ، المصدر نفسه ، ١١٦ : ٤ .

اذ " شخص فيها مسافرا ، وباع واشترى حاضرا ، " (١) قال :

" . . . وقد علم المسلمون ان خيرة الله تعالى من خلقه ، وصفية حسن عبادته ، والموتين على وحيه ، من اهل بيت التجارة ، وهي معولهم سبب وعليها معتمد هم ، وهي صناعة سلفهم ، وسيرة خلفهم ، وقد بلغتك بسالتهم ، ووصفت لك جلادتهم ، ونعتت لك احلامهم ، وتقرر لك سخاؤهم وضياقتهم ، وبذلهم ومواساتهم . وبالتجارة كانوا يعرفون . ولذلك قالت كاهنة اليمين : " لله در الديار ، لقريش التجار . " . . . وقد غير النبي برهة من دهره تاجرا . . . ولشبهة امره في البيع والشراء قال الشركون : (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق) ، (٢) فاوحى الله اليه : (وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق .) (٣) فاخبر ان الانبياء قبله كانت لهم صناعات وتجارات (٤)

هكذا فضلت قريش سائر قبائل العرب باصلها وحسبها وحماستها وفصاحتها وممارستها التجارة بسخا ، مع حسن ضيافة القبائل العربية التي كانت تقرلهم بالسيادة عليهم اثنا خدتها البيت العتيق .

٣ - ما يفضل به الهاشميون سائر قريش :

يلاحظ الدارس توزيع الخصال التي فضل بها الهاشميون القرشيين ، على فترات ثلاث : الفترة السابقة للنبوة ، والفترة المعاصرة لها ، والفترة التي تلتها السى عصر الجاحظ .

(أ) فضل الهاشميين في الجاهلية :

١ - فضل هاشم على بقية بني عبد مناف في الجاهلية :

من بني عبد مناف (٥) الاربعة ، المطلب ونوفل وعبد شمس وهاشم ، فضل الاخير سائر اخوته واليه تعود نسبة " هاشمي " او لفظ " الهاشميين " لكونه الجد الاعلى للنبي محمد . فهاشم هو والد عبد المطلب ، الجد المباشر لمحمد . وقد رأى الجاحظ ان خصلة من خصال الخير لم تكن اغلب او اظهر من اختها في نفس هاشم . قال :

(١) الجاحظ ، " رسالة في مدح التجارة " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٥٦ .

(٢) الفرقان : ٢ .

(٣) الفرقان : ٢٠ .

(٤) الجاحظ ، " رسالة في مدح التجارة " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٥٥ - ٢٥٧ .

(٥) عبد مناف بن قصي والد هاشم . انظر ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، تحقيق ليهي بروفنسال (مصر : دار المعارف ، ١٩٤٨) ص ١٢ .

"... ولذلك قالوا : "احلم من الاحنف وما هو الا في حلم معاوية" ولم يقولوا : "هو احلم من هاشم" لان خصاله متساوية ، وخلال مشرفة متوازية ، وكلها كان غالبا ظاهرا وظاهرا غامرا ، وبعد فمن يستطيع ان يصف هاشما بالحلم دون غيره من الاخلاق والافعال حتى يخصه به دون كل شي فيه من الفضل ؟" (١)

وقد فضل هاشم اخوته حين سبقهم الى اخذ الابلاف لقريش . والابلاف هو ذلك العهد او الامان الذي يوفر حرية التحرك التجاري لقبيلة قريش (٢) . ولا يعني ذلك ان اخوة هاشم لم يكن لهم حظ فيه ، فهم جميعا "اصحاب الابلاف" (٣) الا ان هاشما له فضل السبق والمبادرة . قال الجاحظ :

"... لقد اجمعت الرواة على ان اول من اخذ الابلاف لقريش هاشم ابن عبد مناف . فلما مات ، قام اخوه المطلب مقامه ، فلما مات ، قام عبد شمس مقامه ، فلما مات ، قام نوفل مقامه ، وكان اصغرهم . والابلاف هو ان هاشما كان رجلا كثير السفر والتجارة ، فكان يسافر في الشتاء الى اليمن ، وفي الصيف الى الشام ، وشرك في تجارته رؤسا القبائل من العرب ومن ملوك اليمن ، نحو العاهلة باليمن واليكسوم من بلاد الحبشة ونحو ملوك الروم بالشام ، فجعل لهم معه ربحا فيما يربح وساق لهم ابلات مع ابله . فكفاهم مؤونة الاسفار على ان يكفوه مؤونة الاعداء في طريقه ومنصرفه ، فكان في ذلك صلاح عام للفريقين ، وكان المقيم رابحا والسافر محفوظا . فاخصبت قريش بذلك وحملت معه اموالها واتاها الخير من البلاد السافلة والعالية وحسنت حالها وطاب عيشها . قال ابو عثمان : وقيل ان تفسير قوله تعالى : "واظنهم من خوف" هو خوف من كان هو "الاخوة" يبرون به من القبائل والاعداء وهم مغتربون ومعهم الاموال ... وقد فسر قوم بغير ذلك ... وكيفما كان الابلاف ، فان هاشما كان القائم به دون غيره من اخوته . (٤)

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٢ : ٩٢ ، وكتاب " فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل

الجاحظ (تحقيق حسن السندوي) ص ١٠٤ .

(٢) انظر : Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Ilāf," by Ed.

حيث يرد ان الابلاف الذي حققه هاشم ، تم مع امبراطور الروم لحماية قافلته الى سوريا وذلك سنة ٤٦٧ م .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) كتاب " فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ (تحقيق السندوي) ص ٧٠-٧١ .

والاشارة الثانية لهاشم واخوته في الجاهلية تجد ها في المصدر نفسه ، ص ١١٤ ، تضع ذرية بني عبد شمس وبني نوفل في مقدمة من عادى النبي ورسالته مع ان عبد شمس تؤام هاشم . انظر جمهرة النسب ، ص ١٢ .

ومن الفضل المأثور لهاشم قيامه بالرفادة والسقاية اى توفير الطعام والماء لزوار البيت . وقد عرف باسمه اثر تهشيم الطعام لهم دون سائر قومه من اهل مكة ، قال :
(والشعر لابن الزبيرى) :

كانت قريش بيضة فتغلقت فالصبح خالصة لعبد مناف
الرائشون وليس يوجد رائش والقائلون هلم للاضيف
عمرو العلى وهشم الشريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف (١)

٢ - فضل عبد المطلب بن هاشم على سائر اخوته في الجاهلية

مثلا فضل هاشم اخوته من بني عبد مناف ، فضل عبد المطلب بن هاشم سائر اخوته وهم : أسد ونضلة وابوصيفى (٢) . ولم يعن الجاحظ في جميع كتاباته بالاشارة اليهم ، باستثناء فضل التصاهر الكائن لفاطمة بنت اسد بن هاشم مع ابي طالب بن عبد المطلب ابن هاشم ، مما جعلها أمًا لجميع نسل ابي طالب (٣) .

وقد استقطب عبد المطلب بن هاشم قدرا كبيرا من الفضل الذى حظي به والده ، دون سائر بني هاشم والقرشيين والعرب وذلك لتمتعه ببطافة من الخصال عدها الجاحظ " ارهاصا لنهضة النبي محمد وتأسيسا لما يريد الله به من الكرامة " (٤) قال الجاحظ في الخصال التي فضل بها عبد المطلب ، جد النبي ، سائر قريش تحقيقا للغاية المذكورة التي كانت قريش تهتم بها :

" وعبد المطلب سيد الوادى غير مدافع ، واجمل الناس جمالا وظهرهم جودا واكملهم كمالا . فهو صاحب الغيل والطير الا باهيميل ، صاحب زمزم وساقى الحجيج ... والشرف يتفاضل ، وقد اعطى الله

(١) كتاب " فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، ص ٦٨ .

(٢) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ١٢ .

(٣) الجاحظ ، " من كتابه في الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٢٢ . وكتاب

" فضل هاشم على عبد شمس " ، المصدر نفسه (تحقيق السندوبي) ص ١٩ .

(٤) انظر الجاحظ ، كتاب " فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، (تحقيق

السندوبي) ، ص ٦٩ - ٧٠ .

عبد المطلب في زمانه ، وأجرى على يديه وأظهر من كرامته ما لا يعرف مثله إلا لنبي مرسل ، وإن في كلامه لا بهرمة صاحب الفيل (١) وتوعده إياه برب الكعبة ، وتحقيق قوله من الله ونصرة وعيده بحبس الفيل ، وقتل أصحابه بالطير إلا بإهليل وحجارة السجيل حتى تركوا كالعصف المأكول ، لأعجب البرهانات وأسنى الكرامات ، وإنما كان ذلك أرهاصا لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم وتأسيسا لما يريد الله به من الكرامة . (٢)

ومثما كانت خصال الخير مفاضة على والده هاشم بشكل متوازن ، كذلك هي الآن مع عبد المطلب الذي أصبح " سيد الوادى " . قال الجاحظ :

" . . . لم يكن لعبد المطلب في قريش نظير ، كما أنه ليس لقريش في العرب نظير ، وكما أنه ليس للعرب في الناس نظير . فعبد المطلب لم تكن فيه خصلة أغلب من اختها ، وتكاملت فيه وتساوت وتوافقت إليه . فقالوا عند ذلك : " سيد الوادى " و " سيد قريش " ، وإذا قالوا : " سيد قريش " ، فقد قالوا : " سيد العرب " ، وإذا قالوا : " سيد العرب " ، فقد قالوا : " سيد الناس " ! (٣)

إن خصال عبد المطلب هذه ، لم تدفعه إلى الكبر وفي هذا فضل لا ينكر :
" . . . ولم يدع الرهبة ملك قط إلا فرعون . . . ولا كان فوق السلوك الأعظم والجلالة الأكبر ، بل دون كثير منهم في العصب وشرف الملك وكرم الرعية . ولو كان الكبر فضيلة ، وفي التيه مروءة ، لما رغب عنه بنو هاشم ، ولكن عبد المطلب أولى الناس منه بالخافة وأحقهم بأقصى النهاية . " (٤)

(١) حسب النقوشات الحميرية ، أبرهة هو عبد لتاجر يمني نبطي حكم جنوبي الجزيرة العربية بعد أن قام بثورة ضد قائد المعين من قبل ملك الحبشة ، وذلك قبل سنة ٥٣١ م . لكن المصادر الإسلامية كالطبري وابن هشام نسبت إليه قيادته لحملة ضد مكة بهدف جعل كنيسة صنعا محطة للحجاج عوضا عن مكة وذلك سنة مولد النبي محمد عام ٥٧٠ م - انظر :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Abraha," by A.F. Beeston.

(٢) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوسي ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(٣) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢ : ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٤) الجاحظ ، " رسالة في النبل وذم الكبر " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٨٣ .

٣ - فضل بني عبد المطلب على قریش في الجاهلية :

وقد رأى الجاحظ ان مساهمة الزبير بن عبد المطلب ، عم النبي ، في الدعوة الى تأسيس حلف الفضول^(١) والمشاركة فيه ، التي فاقت مساهمة غيره من بطون قريش من شهد الحلف ولم يبق بأمره ، من ابرز سمات الفضل التاريخي المستحق لبني هاشم - اي ذرية عبد المطلب - قبل الاسلام :

"... . بنو هاشم هم الذين سوا ذلك الحلف " حلف الفضول " وهم كانوا سببه والقائمون به دون جميع القبائل العاقدة له والشاهدة لأمه . فما ظنك بمن شهد له ولم يبق بأمره ؟ وهو اشرف حلف كان فسي العرب كلها ، واكرم عقد عقدته قريش في قديمها وحديثها قبل الاسلام . وفضل ذلك الحلف وفضل اهله ، سبي حلف الفضول . فكان هذا الحلف في بني هاشم ، وبني المطلب ، وبني اسد بن عبد العزى ، وبني زهرة وبني تميم ابن مرة ، تعاقدوا في شهر حرام قياما يتناسحون باكفهم ليكون مع المظلوم حتى يوروا اليه حقه ، ما بل بحر صوفة ، وفي التآسي في المعاش والتساهم بالمال ، يمنعون القوى من ظلم الضعيف ، والقاطن من غصب الغريب . قال الزبير بن عبد المطلب الذي نهض فيه ودعا اليه وحث عليه وهو الذي ساء " حلف الفضول " :

حلفت لنعقدن حلفا عليهم	وان كنا جميعا اهل دار
نسبه الفضول اذا عقدنا	يعزبه الغريب لدى الجوار
ويعلم من يطوف البيت انا	اباة الضيم نهجر كل هار ^(٢)

(١) فيما يتعلق بتواعث تأسيسه راجع :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Ḥilf al Fuḍūl," by Charles Pellat.

وفيه يذكر ان حلف الفضول كان تقليدا شائعا في بني جرهم لاجمال عديدة وان الزبير بن عبد المطلب عدّه نوحا من الفروسية والنبل بعد حروب الفجار التسي سبقتة .

(٢)

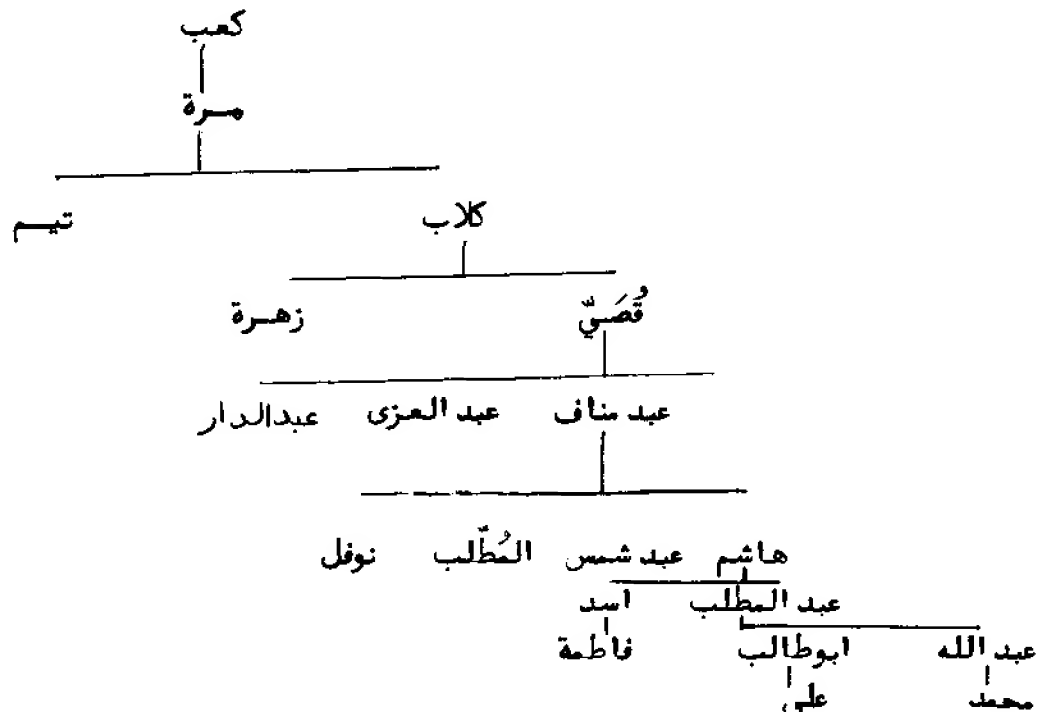
الاسماء المذكورة هي من اشهر بطون قريش . فبني المطلب هم اولاد عم لبني هاشم ، انظر ابن حزم ، الجمهرة ، ص ٦٥-٦٦ . واما بني اسد بن عبد العزى فهم اولاد عم لبني عبد مناف (المصدر نفسه : ١٠٨) . اما بني زهرة فيعود نسبهم الى زهرة اخي قصي ، الجد المباشر لعبد مناف وعبد العزى وعبد الدار . (المصدر نفسه : ١١٩-١٢٦) . واما بني تميم بن مرة فيرتقون في نسبهم الى مرة بن كعب ، الجد الاعلى لكلاب ، والد قصي وزهرة ، وهما جدا لبني هاشم . (المصدر نفسه : ١٢٦-١٣١) وانظر الصورة : =

وقد خص الجاحظ الزبير بن عبد المطلب ، الذي دعا الى حلف الفضول ،
بالشجاعة والجود واستشهد بأبيات له يقول فيها :

ولولا الحس لم يلبس رجال	ثياب اعزة حتى يموتوا
ثيابهم شمال او عيبا	بها دنس كما دنس الحميت
ولكننا خلقنا اذا خلقنا	لنا الحبرات والمسك الفتيت
وكأن لو تبين لهم كلامنا	لقالنا انما لهم سسسميت
تبين لنا القذى ان كان فيها	رصين الحلم يشربها هبيست
ويقطع نخوة المختال عنا	رقاق الحد ضربته صموت
بكف مجرب لا عيب فيه	اذا لقي الكريهة يستميت (١)

وانسجاما مع عادة العرب في التعالي على مصائبها ، فان ابا طالب بن عبد المطلب حين
عُيِّرَ بعض نساءه بالعرج ، اكد على ان ذلك لا ينقص من تدبير ولا يمنع من سوءه . قال :

(=)



(=) راجع الجاحظ ، "كتاب فضل هاشم على عبد شمس" ، رسائل الجاحظ ، (السندوبي)

ص ٧١ - ٧٢ .

(١) الجاحظ ، كتاب فضل هاشم على عبد شمس ، رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ، ص ٧٣ .

قالت عرجت فقد عرجت فما الذي انكرت من جلدي وحسن فعالي ؟
وانا ابن بجدتها وفي صيا بها وسليل كل مسود مفضال
ادع الرقاحة لا اريد نساءها كيما افيد رقائق الاموال
واكف سهي عن وجوه جملة حتى تصيب مقاتل البخال (١)

اما صورة سائر ابنا عبد المطلب قبل الاسلام فيعكسها قول الجاحظ :
" . . . وكما روى الناس ، ان عبد المطلب ولد عشرة (٢) . . . وان عامر
ابن مالك لما رآهم يطوفون بالبيت كأنهم جمال جون ، قال : " بهؤلاء
تنزع مكة وتشرف مكة . " (٣)

(ب) فضل بني هاشم في الاسلام

لعله اصبح واضحا ان لفظ " بني هاشم " الذي حفلت به آثار الجاحظ ، يقصد به
ذرية عبد المطلب الذي استأثر بالفضل الهاشمي الذي شاع من بعده في معظم
ذريته ، وبالتحديد في النبي محمد وآل ابي طالب وآل العباس . قال :
" وليس على ظهر الارض هاشمي الا من ولد عبد المطلب بن هاشم (٤)
وان اول ما فضّل به بنو هاشم سائر قريش ، هو النبوة . قال الجاحظ :
" . . . ونحن ذاكرين - وبالله التوفيق - الخصال التي بانّت بها
بنو هاشم دون قريش . فاول ذلك النبوة ، التي هي جماع خصال الخير ،
واعلاها وافضلها ، واجلها واسناها . " (٥)

-
- (١) الجاحظ ، كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان ، تحقيق مرسي الخولي
(القاهرة : دار الاعتصام ، ١٩٧٢) ص ١٨١ و ١٨٠ .
 - (٢) فضلا عن الزبير بن عبد المطلب ، هناك عبدالله والد النبي ، وحمة وابوطالب
والعباس والحارث والمقوم وعبد العزى المعروف بابي لهب . راجع ابن حزم ،
جمهرة انساب العرب ، ص ١٣ .
 - (٣) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق
السندوبي ، ص ١٠٨ .
 - (٤) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ،
ص ٨٤ .
 - (٥) الجاحظ ، " كتاب الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٢١ .

وقد منحت النبوة بني هاشم فضلاً تاريخياً تحقق لكل من ساهم مع النبي وآله
في دعوته ورسالته :

"... والصديق من صدقهم ، والفاروق من فرق بين الحق والباطل
فيهم ، والحواري حوارهم ... ولاخير الا فيهم ، ولهم ، ومنهمهم ،
ومعهم . والنجدة والخير فيهم ، والانصار انصارهم ، والمهاجر من هاجر
اليهم ومعهم" (١)

والمعنى بهذا الفضل مباشرة من بني عبد مناف : بنو هاشم وبنو المطلب ومن بني
عبد شمس وبني نوفل الذين ابطأوا عن الاسلام واهله ، فامتنع الفضل عنهم :

"... قد علم الناس ان عبد مناف ولد اربعة : هاشم والمطلب
وعبد شمس ونوفل . وان هاشم والمطلب كانا يدا واحدة ، وان عبد شمس
ونوفل كانا يدا واحدة . وكان ما ابطأ بهني نوفل عن الاسلام ابطأ اخوتهم
من بني عبد شمس ، وكان ما حث بهني المطلب على الاسلام فضل محبتهم
لهني هاشم ، لان امر النبي كان بينا وانا كانوا يمتنعون عنه من طريق
الحسد والبغضة" (٢)

وحين يشهد الجاحظ بفضل بني هاشم في الاسلام ، يلاحظ ان فرعي البيت
الهاشمي - الطالب والعباسي - متساويان في ذلك الفضل ، نظراً لما قدما من العزائم
الثامة والادوات السكينة (٣) في الجود والرأى والعبادة والفقه والنجدة والجمال وسجاجة
الخلق . قال الجاحظ في ذلك :

"... وليس على ظهر الارض جواد جاهلي ولا اسلامي ولا عربي ولا عجمي
الا وجوده يكار يصير بخلا اذا ذكر جود علي بن ابي طالب ، وعبد الله
ابن جعفر بن ابي طالب ، وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب . وان كان
الفخر والفضل في الجود والسماح ، فمن مثل هؤلاء في فضلهم ؟ اما
المنطق والخطب فقد علم الناس كيف كان علي بن ابي طالب عند التفكير

(١) الجاحظ ، رسالة في تفضيل بني هاشم على من سواهم ، مجلة لغة العرب ، ١٥٠٤ .

(٢) الجاحظ ، كتاب " فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوي ،
ص ١١٣ - ١١٤ .

(٣) الجاحظ ، " رسالة تفضيل بني هاشم على من سواهم " ، مجلة لغة العرب ، ص ١٨٤ .
ونص الرسالة نفسها نشره الدكتور محمد طه الحاجري في مجموع رسائل الجاحظ ،
(بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨٣) .

والتعبير ، وعند الارتجال والبدئية ؛ وعند الاطناب والايجاز فسي
وقتيهما ، وكيف كان كلامه قاعدا وقائما . وكيف كان عبدالله بن العباس
- رضوان الله عليه - الذي كان يقال له الحبر والبحر . وان كان الفخر
ينهل الرأي وصواب القول ، فمن مثل عباس بن عبد المطلب ، وعبد الله
ابن العباس ؟ ويزهد علي بن ابي طالب ودينه يضرب الشل . وان عددتم
النسك من غير الطوك ، فابن انتم من علي بن الحسين زين العابدين ،
الذي كان يقال له علي الخير وعلي العابد . وابن انتم عن علي بن عبدالله
بن العباس ؟ . وابن انتم عن موسى بن جعفر
بن محمد ؟ وكان علي بن الحسين بن علي ، وعلي بن عبدالله بن جعفر ، وعلي
ابن عبدالله بن العباس ، عليهم السلام يصلون في كل ليلة الف ركعة ،
مع العلم والعلم وكظم الغيظ والصفح الجميل والاجتهاد السبر . فلوان
خصلة من هذه الخصال او داعية من هذه الدواعي عرضت لغيرهم لهلك
واهلك . واعلم انهم لم يمتحنوا بهذه المحن ولم يتحملوا هذه الهلوى ، الا
لما قدموا من العزائم الثابتة والادوات الممكنة ، ولم يكن الله ليزيدهم في
المحنة ، الا وهم يزادون على شدة المحن ، خيرا وعلى التكشف ، تهديها
. واما الفقه والعلم والتفسير والتأويل ، فان ذكرتموه لم يكن لكم فيه
احد مثل علي بن ابي طالب ، وعبد الله بن العباس ، وزيد ومحمد ، ابني
علي بن الحسين بن علي ، وجعفر بن محمد ، الذي ملأ الدنيا علمه
وفقهه . ويقال ان ابا حنيفة من تلامذته . ومن مثل علي بن ابي طالب في
النجدة والبسالة والشجاعة ؟ وقد وقع اتفاق اوليائه واعدائه على انسه
اشجع البشر . ومن مثل حمزة بن عبد المطلب اسد الله واسد رسوله
ومن مثل الحسين بن علي ؟ ومن لكم مثل محمد وابراهيم ابني عبدالله ؟
. وان كان الشرف والفخر في الجمال ، والكمال والبسطة في الجسم
وتمام القوام ، فمن كان كالعباس بن عبد المطلب ؟ ومن مثل علي بن محمد
الله بن العباس وولده ؟ وكان الحسن بن علي اصبح الناس وجها . كان
يشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك عبدالله بن الحسين
المحض . اما الحسن بن علي ابن ابي طالب ، فاشبه الناس برسول الله
خلقا وخلقا . وان كان الفخر بالبشر وطلاقة الوجه وسجاجة الاخلاق
فمن مثل علي بن ابي طالب ؟ وما خفى به آل ابي طالب من الفضائل
ان اول هاشمي ، هاشمي الابوين كان في الدنيا ولد لابي طالب : لان
اباهم عبد مناف ، وهو ابو طالب بن شيبه وهو عبد المطلب بن هاشم وهو
عمرو وهو ابو شيبه (١)

(ج) فضل بني هاشم عصر الجاحظ

ويبدو ان فضل بني هاشم على سائر العرب مستمر في جميع العصور بها فيه
عصر الجاحظ . قال :

"... ثم ليس في الارض احسن اخلاقا ولا اطهر بشرا ولا ادرم دماثة
ولا ألين عريكة ولا اطيب عشيرة ولا اهدى من كبر منهم . والحدة لا يكسار
يعد منها الحجازي والتهامي . الا ان حلبيهم لا يشق غباره ، وذلك في
الخاص . والجمهور على خلاف ذلك حتى تصير الى بني هاشم . فالحلم
في جمهورهم وذلك يوجد في الناس كافة ولكننا نضمن انهم اتم الناس فضلا
واقبلهم نقضا وفيهم مع فرط جودهم وظهور عزهم من البشر الحسن
والاحتمال وكرم التفاضل ما لا يوجد مع البخيل الموسر والذليل المتكسر
الذين يجعلان البشر وقاية دون الطال . وهم في كل اوقاتهم وجميع اعمارهم
فوق من هم ، على مثل ميلادهم في الهيئة الحسنة والروية الظاهرة
والاخلاق المرضية . وليس في الارض قوم انطق خطيبا ولا اكثر بليغا من
غير تكلف من بني هاشم". (١)

وللجاحظ رأى اضافي في معاصريه من بني هاشم يعكس فيه مفهومه لاثرا البيئية
الجغرافية على الشكل والخلق . قال :

(=) انظر : الجاحظ ، "رسالة تفضيل بني هاشم على من سواهم" ، مجلة لغات
العرب ، ص ٤١٨ و ٤١٩ . وكتاب "فضل هاشم على عبد شمس" ، رسائل الجاحظ ،
(السندوبي) ص ٨٢ - ٨٤ ، ٨٧ ، ١٠٥ - ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٥ ، وكتاب
الاطان والبلدان " في رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٢٢ . والاشارة الاخيرة في النص

اشارة الى التصاهر الذي تم بين ابي طالب بن عبد المطلب بن هاشم وفاطمة
ابنة اسد بن هاشم ، مما جعل فاطمة اما لجميع ولد ابي طالب : طالب وجعفر
وعقيل وهلي . قال الجاحظ في هذا المعنى : " من يستطيع ان يسامي رجالا ولدهم
هاشم مرتين ، من قبل ابيهم ومن قبل اسمهم ؟ "

. انظر : الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس ،

رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ، ص ١٠٩ .

(١) الجاحظ ، "رسالة في تفضيل بني هاشم على من سواهم" ، مجلة لغة العرب ، ص ٤١٧

وقد علمنا ان لجماعة بني هاشم طابعا في وجوههم يستبين به كرم العتق
وكرم النجار ، وليس ذلك لغيرهم . ولقد كانت الاهواز تفسد هذا المعنى
على هاشمية الاهواز . ولولا ان الله غالب على امره ، لقد كانت طمست
على ذلك العتق ومحتة (١)

بهذه الصفات المذكورة لبني هاشم ، السهبة والرافقة لنبوة محمد ، اصبح بنو
هاشم كما يقول الجاحظ :

"... موضع العذار من خد الفرس ، والمعقد من لبة الكعب ، والجوهر
المكنون ، والذهب المصفى ، وموضع المحبة من البيضة ، والعين مسن
الرأس ، والروح من البدن . وهم الانف المقدم والسنام الاكبر ، والدرة
الزهراء ، والروضة الخضراء ، والذهب الاحمر ... (٢)

بيد انه لم يفت الجاحظ الاشارة الى ان هؤلاء القوم ، كجميع البشر ، يخطئون
ويصيبون ، الا ان حظهم من النقص دون حظ سائر البشر . قال :
"... ثم لا تجد عند افسدهم شيئا من المنكر ، الا رأيت في غيره مسن
الناس اكثر منه من شايع القائل وجمهور العشائر ... (٣)

٤- ما يفضل به محمد العالمين

رأى الجاحظ ان فضل محمد على العالمين يأتي من كونه قد "بعث من خيرة
قريش" (٤) . فهما ان بني هاشم افضل قريش ، وقريش افضل العرب ، والعرب افضل الامم ،
فان محمدا بالتالي يفضل العالمين . وتفسير ذلك لديـــــــــــــــــه ان محمدا خُصَّ

(١) الجاحظ ، "كتاب الاوطان والبلدان" ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٣٥-١٣٦ .

(٢) انظر : الجاحظ ، "رسالة مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ١ : ١٣ .

(٣) انظر : "رسالة في تفضيل بني هاشم على من سواهم" ، مجلة لغة العسبر ،
ص ٤١٧ .

(٤) الجاحظ ، "كتاب فضل بني هاشم على عبد شمس" ، رسائل الجاحظ ، تحقيق
السندوبي ، ص ٨٢ .

بالنبوة " التي تشل جماع خصال الخير واعلاها وافضلها " (١) فاصبح كما يقول الجاحظ " خيرة الله تعالى من خلقه وصفه من عباده والمؤمنين على وجهه " (٢) لانه اوفر الخلق حظا في التحلي بما قسم الله من خيرات لعباده . قال :

" . . . ولم يقسم الله مذهبا رضى ، ولا خلقا زكيا ، ولا عملا مرضيا الا وحظه منه اوفر الحظوظ ، وقسمه فيه اجزل الاقسام " (٣)

وفي مفهوم الجاحظ ان محمدا قد فضل العالمين لمتعته بطائفة من الخصائص الخلقية لم يشرك فيها بشر ؛ اما تفوقه الخلقي فواضح في قول الجاحظ :

" . . . وآية اخرى لا يعرفها الا الخاصة . . . وهي الاخلاق التي لم تجتمع لبشر قط قبله ، ولا تجتمع لبشر بعده . وذلك انا لم نر ولم نسمع لاحد قط كصبره ، ولا كعلمه ، ولا كوفاه ، ولا كرهده ، ولا كجوده ، ولا كجودته ، ولا كصدق لهجته ، وكرم عشرته ، ولا كتواضعه ، ولا كعلمه ، ولا كحفظه ، ولا كصمته اذا صمت ، ولا كقوله اذا قال ، ولا كعجيب منشئه ، ولا كقلته تلونه ، ولا كعفوه ، ولا كدوام طريقته وقلة امتثاله . . . فلا يستطيع منافق ولا زنديق ولا دهرى ، ان يحدث ان محمدا عليه السلام جال جولة قط ، ولا فرقة قط ، ولا خام عن غزوة ، ولا هاب حرب من كثره . (٤)

وقد اكد الجاحظ ايضا على تفوق النبي الباني حين قال :

" . . . وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يسبق اليه عربي ، ولا شارك فيه اعجمي ، ولم يدع لاحد ، ولا ادعاء احد ما صار مستعملا وشاعرا سائرا . . . وهو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى : قل يا محمد (وما انا من المتكلمين) . . . (٥) وقد استعمل البسيط في موضع البسط ، والمقصود في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي . . .

-
- (١) الجاحظ ، " كتاب الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٢١ .
 (٢) الجاحظ ، رسالة في حجج النبوة ، المصدر نفسه ، ٣ : ٢٥٧ .
 (٣) الجاحظ ، رسالة مدح التجارة ، المصدر نفسه ، ٤ : ٢٥٥-٢٥٦ .
 (٤) الجاحظ ، " رسالة في حجج النبوة " ، المصدر نفسه ، ٣ : ٢٨٠-٢٨١ .
 (٥) سورة ص : ٨٦ .

فلم ينطق الا عن ميثاق حكمة ، ولم يتكلم الا بكلام قد حَقَّ بالعصمة وشيد بالتأييد ويسر بالتوفيق . وهو الكلام الذى اتق الله عليه المحبة ، وفشاء بالقبول ، وجمع له بين السهابة والحلاوة وبين حسن الافهام وقلة عدد الكلام . . . لم يقم له خصم ولا افحمه خطيب . . . لا يحتج الا بالصدق ولا يطلب الفلج الا بالحق . . . لم يسمع الناس بكلام قط اعم نفعسا ، ولا اقصد لفظا ، ولا احسن موقعا ، ولا افصح معنى ، من كلامه صلى الله عليه وسلم . . . والذى يدلُّك على ان الله عز وجل قد خصه بالايجاز وقلة عدد اللفظ ، مع كثرة المعاني ، قوله صلى الله عليه وسلم : " نصرت بالصبا ، واعطيت جوامع الكلم " . (١)

وقد لاحظ الجاحظ ان تفوق النبي الهاني والخلقي كان يخضع لاشراف الهى محكم بدلالة قول النبي : " نقلت من الا صلاب الزاكية الى الارحام الطاهرة ، وما افترقت فرقتان الا كنت في خيرهما " . (٢) وقد فصل الجاحظ كيفية ذلك الاشراف وتلك التهيئة لجعل الله النبي مستودع آياته ، بقوله :

" . . . فنزله الله رسوله ، ولم يعلمه الكتاب والحساب ، ولم يرعه في صنعة الكلام ، والتعبيد لطلب الالفاظ ، والتكلف لاستخراج المعاني ، فجمع له باله كله في الدعا الى الله ، والصبر عليه ، والسجادة فيه ، والانبات اليه ، والسيل الى كل ما قرب منه ، فاعطاء الا خلاص الذى لا يشبهه ريبا ، واليقين الذى لا يطرره شك ، والعزم المتكمن ، والقوة الفاضلة . . . فانما نقصه ليزيده ، ومنعه ليعطيه " . (٣)

(١) انظر البخارى ، باب التعبير : ١١ ، حيث ورد الحديث بلفظ " اوتيت جوامع الكلم " والباب نفسه : ٢٢ ، حيث ورد بلفظ " بعثت بجوامع الكلم " . انظر : ونسك ، أ.ى . ، ونسك ، ب.ى . ، في المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوى ، (ليدن : بريل ، ١٩٦٧) ٦ : ٨٥ . وانظر الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٢ : ١٧ ، ١٨ ، ٢٨ .

(٢) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق : السندوبى ، ص ٨٢ . ونص الحديث : " ثم فرقهم فرقتين فجعلني من خير الفرقتين " في مسند احمد ابن حنبل ، الباب الرابع : ١٦٦ . او بلفظ " فجعلني من خيرهم " في سنن الترمذى باب المناقب : ١ . انظر مادة " فرق " ، المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوى ، ج ٥ ، ١٣٦ .

(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٤ : ٣٠ - ٣٢ .

واذا كان الله قد صرف النبي عن الامور التي كان يتكلفها قومه ويتنافسون فيها ،
تمييزاً للنبوّة عن الشعر ، فان ذلك لم يمنع النبي ان يصبح ، بالنبوّة ، افصح العرب
لان حكمة الله في رسالاته تقتضي تناسبا بين النبوّة والوسط البشري الذي يستقبلها ،
لكي يكون التحدى من جنس ما تفوق به ذلك الوسط . قال الجاحظ :

" ولما كان اعجب الامور عند قوم فرعون السحر ، . . . بعث الله موسى
عليه السلام على ابطاله وتوحيده ، وكشف ضعفه واظهاره ، ونقض اصله . . .
مع ما اعطى الله موسى عليه السلام من سائر البرهانات وضروب العلامات .
وكذلك زمن عيسى عليه السلام . . . وكذلك دهر محمد صلى الله عليه وسلم ،
كان اغلب الامور عليهم واحسنها عندهم واجلها في صدورهم ، حسن
البيان ، ونظم ضروب الكلام ، مع علمهم له وانفرادهم به . فحين شاعت
البلاغة فيهم وكثر شعراؤهم وفاق الناس خطباؤهم ، بعث الله عز وجل ،
فتحداهم بما كانوا لا يشكون انهم يقدرون على اكرامه . . . وكان ذلك
من اعجب ما آتاه الله نبيا قط مع سائر ما جاء به من الآيات ، ومن ضروب
البرهانات . ولكل شي* باب ومأتى ، واختصار وتقريب . فمن احكم الحكمة
ارسال كل نبي بما يفهم اعجب الامور عندهم ، ويبطل اقوى الاشياء فسي
ظنهم . . . وان محمدا صلى الله عليه وسلم مخصوص بعلامة لها فسي
العقل موقع ، كموقع فلق البحر من العين ، وذلك قوله لقريش خاصة ،
وللعرب عامة ، مع ما فيهما من الشعراء والخطباء والبلغاء ، والدهاة
والحلماء ، واصحاب الراى والمكيدة ، والتجارب والنظر في العاقبة :
ان عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواى ، وصدقم في تكذيبى .*(١)

وقد عبر الجاحظ عن التناسب بين المعجزة والوسط البشري الذى نزلت فيه
بقوله ايضا :

" واعلم ان الله تعالى لم يرسل رسولا ولا بعث نبيا الا من كان فضله
في كلامه وبيانه على فضل المبعوث اليه . فكان النبي صلى الله عليه وسلم
افصح العرب لسانا ، واحسنهم بيانا ، واسهلهم مخارج للكلام واكثرهم
فوائد من المعاني ؛ لانه كان من جماهير العرب : مولده في بني هاشم ،

(١) الجاحظ ، " رسالة حجج النبوّة " ، رسائل الجاحظ ٣ : ٢٧٣ و٢٧٨ - ٢٨٠ .

واخواله من بني زهرة ، ورضاعه في بني سعد بن بكر ، ومنشؤه في قريش . . .
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " انا افصح العرب بيدا اني من قريش ،
ونشأت في بني سعد بن بكر . " (١) ولولم يكن ما عددنا من هؤلاء الأحياء
الا قريش وحدها لكان فيها مستغنى عن غيرها . . . لان قريشا افصح
العرب لسانا وافضلها بيانا ، واحضرها جوابا ، واحسنها بديهة ، واجمعها
عند الكلام قلبا . " (٢)

وما خص به محمد انه ارسل للعالمين ، في حين ان الرسالات التي سبقته كانت
تخص امة دون غيرها . وهذه النقطة من السحلية الى العالمية هي فضل نبوة محمد بن
عبدالله الذي اصبح رسولا لجميع الامم ؛ وبذلك يكون قد فتح بعدا جديدا من ابعاد
الرسالات السابوية مع الاجناس والامم . قال الجاحظ :

" . . . والله عز وجل قد بعث محمدا صلى الله عليه وسلم الى العجم فضلا
عن العرب . . . وقد جعل الله قوم كل نبي هم السلفين والحجة . الا ترى اننا
نزعم ان عجز العرب عن مثل نظم القرآن حجة على العجم ، من جهة اعلام
العرب العجم انهم كانوا من ذلك عجزا . وقد قال النبي صلى الله عليه
وسلم : خصصت بامور : منها اني بعثت الى الاحمر والاسود . . . وجعلت
لي الارض طهورا . " (٣) فدل بذلك على ان غيره من الرسل انما كان يرسل
الى الخاص . وليس يجوز لمن عرف صدق ذلك الرسول ، من الامم ، ان
يكذبه ، وينكر دعواه . . . هذا فرق من بعث الى البعض ومن بعث الى
الجميع . " (٤)

وبذكر الخصال التي فضل بها محمد العرب والعجم ، تكون قد انتهينا القسم المتعلق
بنظرية الجاحظ في حسنات العرب ونأتي الى عرض آرائه في مساوي العرب .

-
- (١) لم يرد الحديث في كتب الحديث النبوي ، لكنه ورد في لسان العرب ، مادة " بيد " ،
(بيروت : دار صادر ، ١٩٥٥) ، ٣٠ : ٩٩ نغلا عن ابن الاثير في النهاية في غريب الحديث .
(٢) الجاحظ ، رسالة في تفضيل النطق على الصمت ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٣٧ -
٢٣٨ .
(٣) نص الحديث في الجامع الصحيح لمسلم بن الحجاج ، باب الساجد : ٣ ، ومسنند
الداودي ، باب السير : ٢٨ . انظر : المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي .
(٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٣ : ٢٩١ - ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

ان الجاحظ في مآخذه على العرب انطلق من الجاهلية مروا بالاسلام وحكم
بني امية وبني العباس . ونعرض آراءه في كل على حدة .

١ - مآخذه على عرب الجاهلية :

من الخصائص الاجتماعية التي انتقدها الجاحظ في عرب الجاهلية ، اتصافها
بالحمية والجفاء ، وغلظ الطباع والوحشية والعرضية والمجرمية والعنجهية . (١)

- (١) الجاحظ ، " كتاب النبل والتنبيل و ذم الكبر " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٢٥ - ١٢٦ .
والمقصود بالحمية حمية عرب الجاهلية في تعظيم الرؤساء ، وحرب الاخوة . راجع
" رسالة الجاحظ في الحكمين وتصويب امير المؤمنين علي بن ابي طالب " مجلة
الشرق ، ص ٤٢٦ و ٤٣٣ . واما جفاء العرب والاعراب فقد ذكره الجاحظ في
موضعين : الاول حين ميز قريشا عن سائر العرب بقوله : " ومن خصالهم انهم
لم يشاركوا العرب والاعراب في شي " من جفائهم وغلظ شهواتهم . وكانوا لا يأكلون
الضباب ولا شيئا من الحشرات . " انظر : كتاب في الاوطان والبلدان ، " رسائل
الجاحظ ، ٤ : ١١٢ . والثاني في نقد لعرب عصره حين قال : " وهو لا الجفاة
والاعراب المحرمون ومن قل فقهه في الدين اذا خطبوا على المنابر فكانهم فسي
طباع اولئك الجاننين . " البيان ، ٢ : ٢٣٦ .
وبلاحظ ان الجاحظ نظر الى اعراب الجاهلية واعراب عصره نظرة واحدة اعتادا
على قول النبي : " من سكن البادية جفا . " ولكن يجب التفريق بين الخصال
الوحشية للاعراب - التي هي مادة لمآخذ الجاحظ هنا - وبين الخصال الانسانية
الرقية لقريش التي لم تشارك الاعراب في خصالها . ويجب التمييز ايضا بين مفهوم
الجاحظ لفضيلة شظف المعيش - المتمثلة في اشارة الجاحظ السابقة الى قلسة
طعام العرب وصبرها وجهادها (انظر الخلا ، ٩٣ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ٢٠١) -
وسمات الجفاء وغلظ الطباع والعنجهية والمجرمية التي شاعت بين الاعراب .
والخلاصة ان الجاحظ لم يحتكر مناقب الخير في قريش دون سائر العرب لان
الجاحظ يرى ان من العرب من تميز بمناقب قريش . قال : لان قريشا والعرب
قد يستون في مناقب كثيرة . قد يلغى في العرب الجواد الهر ، وكذلك الحلیم
والشجاع . " انظر : الجاحظ ، " كتاب الاوطان والبلدان ، " رسائل الجاحظ ،
٤ : ١١٤ .

وقد خص الجاحظ العادات الدينية لعرب الجاهلية وسائر الامم بدراسة خاصة (١) اظهر فيها استواء تهافت الامم في هذه المسألة ، وذكر منها ظواهر الطيرة والايان بالهاتف ، وعبادة الحجارة التي سبوا آلهة . اما الطيرة (٢) لدى العرب ، فقد عقد الجاحظ فصلا طويلا في هذه الظاهرة توجه بايراد نص لاستاذ النظام تضمن عدم ايمان الاخير بها لانها "باطل" (٣) .

واما ظاهرة ايمان العرب بالهاتف ، فان الجاحظ لم يملك الا السخرية مسن اولئك "الاعراب واشياء الاعراب ، الذين لا يتحاشون من الايمان بالهاتف" (٤) ومن ان للهاتف شعرا ان الاعراب "تزعج ان مع كل فعل من الشعراء شيطانا يقول الفحل على لسانه الشعر" (٥) وقد تبنى الجاحظ موقف استاذ المعتزلي النظام (٦) ، في تحليل ظاهرة مكالة الاعراب للجن وعزيف الجن لهم . قال في تفسير ذلك :

" واصل هذا الامر وابتدأوه ، ان القوم لما نزلوا بلاد الوحش ، عطلت فيهم الوحشة . ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلاء ، والبعد من الانس ، استوحش . . . واذا استوحش الانسان تمثل له الشئ الصغير في صورة الكبير ، وارتاب ، وتفرق ذهنه ، وانتقضت اخلاطه ، فرأى ما لا يرى ، وسمع ما لا يسمع . . . ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعرا تناشدوه ، واحاديث

-
- (١) الجاحظ ، "كتاب الاخبار وكيف تصح" ، المجلة الآسيوية .
 (٢) اصل التطير في رأى الجاحظ من الطير اذا مر بارحا او سانحا (من اليمين الى الشمال او العكس) حتى صارت العرب اذا عابثت الاور من الناس او البهائم تطيرت عندها ، كما تتطير من الطير اذا رأتها على تلك الحال . انظر : الجاحظ ، كتاب الحيوان ٣ : ٤٤٣ - ٤٥٣ .
 (٣) المصدر نفسه ، ٣ : ٤٥٣ .
 (٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٦ : ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ .
 (٥) الجاحظ ، المصدر نفسه ، ٦ : ٢٢٥ والفحل من الشعراء "الستفوق على غيره" . وفحول الشعراء هم - الذين غلبوا بالهجا - من هجاهم وكل من عارض شاعرا فغلبه . راجع لسان العرب لابن منظور ، مادة فحل .

- (٦) الجاحظ ، المصدر نفسه ٦ : ٢٤٨ . ويشرح الجاحظ الفرق بين الغيلان والسعلاة بقوله : "السعلاة هي كما يزعم الاعراب الواحدة من الجن قبل ان تتفول اي تتلوى لتفتن السفار" . انظر الحيوان ٦ : ١٥٨ .

توارثوها فازدادوا بذلك ايمانا ، ونشأ عليه الناشئ* ، ورثي به الطفل ،
فصار احدهم حين يتوسط الفيا في . . . عند اول وحشة وفزعة ، وعند
صياح يوم ومجاوبة صدى . . . يقول : رأيت الغيلان ، وكلمت السعلاة اثم
يتجاوز ذلك الى ان يقول : قتلتها . . . ورافقتها . . . وتزوجتها . . .
وما زادهم في هذا الباب ، واغراهم به ، ومد لهم فيه ، انهم ليس يلقون
بهذه الاشعار وبهذه الاخبار الا اعرابيا مثلهم ، والا طاميا لم يأخذ نفسه
قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق او الشك . . . (١)

والملاحظ ان للاستيعاش وجهين في نظر الجاحظ : الوجه السليم كما رأينا ،
وهو بالقدر الذي ينصرف بالانسان الى مساوي* العزلة عن المجتمع ، والوجه الايجابي
الذي يعكسه النص التالي ، لانه يساعد على تفتق الذهن وصفا* القريحة . قال
الجاحظ :

* والعرب كانوا سكان فياف وتربية العرا* . اذهان حداد ونفوس مفكرة . . .
فحين حملوا حدادهم ووجهوا قواهم لقول الشعر وبلاغة المنطق وتشقيق
اللغة . . . بعد الاستدلال بالآفاق وتعرف الانوا* ، والا اعتبار بكسل
محسوس ، بلفوا في ذلك الغاية وحازوا كل امنية* (٢)

وقد انكر الجاحظ على الاعراب زعمهم ان للغيلان (٣) قدرة على اعتراض السفار
او قدرة على تغيير العقل . قال الجاحظ :

* انهم لم يسلطوا على الصحيح العقل ، ولو كان ذلك اليهم لبدأوا بعلي*
ابن ابي طالب ، وحمزة بن عبد المطلب وياحي بكر وعمر في زمانهم* ،
وبغيلان والحسن في دهرهما ، وهو اصل وعمر في ايامهما* (٤)

-
- (١) الجاحظ ، المصدر نفسه ٦٤ : ٢٤٩ - ٢٥١ .
(٢) الجاحظ ، رسالة في مناقب الترك ، رسائل الجاحظ ج ١ : ٧٠ .
(٣) اللفظ مشتق من الجان اذا تغول اي تلون وتشكل ليفتن السفار ، انظر :
الجاحظ ، كتاب الحيوان ٦٠ : ١٥٨ .
(٤) المصدر نفسه ٦٤ : ١٦٠ .

وقد جمع الجاحظ سائر عيوب عرب الجاهلية لتعريف الناس "تفاوت ما بين حال العاقل في دنياه ودينه" (١) فقال :

"... وهم مع ما حكيت لك من صحة العقل وكرم الطبيعة وحسن البهتان وسعة المعرفة وجودة الرأي وشدة الانفة ، يعبدون الحجارة ويحلفون بها ويتحامون كسرها وتهجينها وينكسون لها ويدعونها آلهة ويخاطبونها... ثم مع ذلك ربما رموا بها واتخذوا سواها... ويقولون : ايها رجل قتل فلم يطلب عليه بدمه خلق من دماغه طير يسمى هامة ؛ فلا يزال يزقو على قبره وينعي عليه ، عجز عليه ، حتى يبعث ؛... ثم كانوا يستسقون للميت... وكانوا اذا اجدهت بلادهم فارادوا الاستطارة اخذوا بعيرا اورق فشدوا في ذنبه العشر او السلع وصعدوه في الجبل واشعلوا في ذنبه النار ودعوا وتضرعوا ، ويؤمنون انهم ان لم يفعلوا ذلك لسم يستجب الله منهم... وكان الرجل منهم اذا غزا عقد خيطا في ساق شجرة ، فاذا رجع ورآه منحلا فقد خانت قعيدته بزعمهم ، وان رجس وجوده بحاله فقد حفظت نفسها له . قال الشاعر :

هل ينفعنك اليوم ان همت بهم كثرة ما توصي وتعقاد الرتم ؟
والرتم اسم الخيط بعينه . وكانوا يقولون : اذا احب الرجل المرأة واحبته ، فان لم يشق عليها برقعها وتشق عليه رداءه فسد حبهما ، وان فعلا ذلك دام حبهما ، قال عبد بنى الحساس :

وكم قد شققنا من رداء ومزور ومن برقع عن طفلة غير عانس
اذا شق برد شق بالبرد مثله ودالك حتى كنا غير لابس

هذا مع ايمانهم بالعدوى والجن وتلون الخيلان... ومع مذهبهم في الحامي والبحيرة والوصيلة والسائية مع امور كثيرة لا يحتاج الى ذكرها ؛ وانما اردنا من ذلك ان يعرف الناس تفاوت ما بين حال العاقل في دنياه ودينه . فاذا صار الى التكذيب والتعديق والايمان والكفر صار الى غير الذي كان عليه من التمييز" (٢)

(١) الجاحظ ، "كتاب الاخبار وكيف تصح" ، المجلة الآسيوية ، ص ٩٤ - ٩٧ .

(٢) المصدر نفسه .

ونختم حديثنا عن رأى الجاحظ في عرب الجاهلية بإيراد القطعة التالية

حول عادة بعض العرب في نسبة عار الفرد الى المجموع :

" والعرب اذا وجدت رجلا من القبيلة قد اتى قبيحا الزمت ذلك القبيلة كلها ، كما تمدح القبيلة بفعل جميل وان لم يكن ذلك الا به واحد منها ، فتهجو قريشا بالسخينة وبعد القيس بالتمر وذلك عام في الحيين جميعا وهما من صالح الاغذية والاقوات ، كما تهجو بأكل الكلاب والناس وان كان ذلك من رجل واحد . " (١)

والجاحظ ، كما يهدو من النص اعلاه لا يروقه اطلاق التعميمات السهنية على سببي حوادث جزئية وكأننا يدعو ان تكون العرب اكر استقرا لتفاصيل الواقع الذي تمدحه او تهجوه ، قبل اطلاق الحكم التعميمي عليه .

(١) الجاحظ ، البخلا ، ص ٢١٥ .

اخذ الجاحظ على عرب صدر الاسلام الذين عادوا النبي وآذوه ، و اشار الجاحظ الى واقع عداوتهم للنبي مستعينا بنص الكفة التي قالها عبدالله بن عبدالله بن الاهتم لعمر بن عبدالعزيز . قال :

" اما بعد فان الله خلق الخلق غنيا عن طاعتهم ، آثنا لمعصيتهم ، والناس يومئذ في المنازل والرأى مختلفون ، والعرب بشر تلك المنازل ، اهل الوهر واهل المدر ، تحتاز دونهم طيبات الدنيا ورفاغة عيشها : ميتهم في النار وحيهم اعى . مع ما لا يحصى من السرغوب عنه ، والمزهود فيه . فلما اراد الله ان ينشر فيهم رحمة ، ويسبغ عليهم نعمته ، بعث اليهم رسولا منهم عزيزا عليه ما عنتوا ، حريصا عليهم ، بالسوء من روءى وفاقا رحيم ، فلم يمنعهم ذلك من ان جرّحوه في جسده ولقبوه في اسمه ، ومعه كتاب من الله ناطق ، مبرهان من الله صادق " (١)

ويكشف الجاحظ عن ملامح اخرى لتلك العداوة بعد ان تحداهم النبي بمعارضة القرآن . قال :

" وبعد ، فقد هجوه من كل جانب . . . وحاتّوه في السواقف ، وخاصوه فسي المواسم ، وبادوه العداوة ، وناصره الحرب . . . وهم اثبت الناس حقدا وابعدهم مطلبا واذكرهم لخير او لشر . . . وهل يذعن الاعراب واصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز ، والتوقيف على النقص ، ثم لا يبذلون مجهودهم ، ولا يخرجون مكنونهم وهم اشد خلق الله عز وجل انفة ، وافراط حمية ، واطلبه بطائلة " (٢)

اما اصحاب التحدى القرآني الذين " بذلوا النفوس والاموال وخرجوا من ديارهم في اطقا امره وفي توهين ما جاء به " (٣) فهم لم يخرجوا عن كونهم جماعة " الشعراء " والخطباء

(١) الجاحظ ، البيان ، ٢ : ١١٨ .

(٢) الجاحظ ، رسالة في حجج النبوة ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢٧٤ - ٢٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧٤ .

والبلغاء والدهاة والحلما واصحاب الرأي والسكيدة والتجارب والنظر في العاقبة (١) ولكن جميع هؤلاء ، من قريش خاصة والعرب عامة ، عجزوا عن معارضته فكان المعجز فيهم فاشيا ظاهرا (٢) مع " ان الكلام كان سيد عملهم ، وتحبيره اهن من القتال ومن اخراج المال " (٣) ومع ذلك ، فانهم استمروا في الطعن في القرآن ، دون جدوى " مع كثرة عددهم وشدة عقولهم واجتماع كلمتهم " (٤) وفي هذا مأخذ واضح عليهم . قال :

" ولم يقل : ان القوم قد تركوا مسألتهم في القرآن والطعن فيه
وبذلك على ذلك قوله عز وجل : (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) . وقوله عز ذكره : (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا او بدله) ، وقوله تعالى جل ذكره :
(وقال الذين كفروا ، ان هذا الا فلك افتراء واعانه عليه قوم آخرون) " (٥)

وقد رد الجاحظ سوء تصرفهم تارة الى الانفة والحمية والكبر وطورا الى الحسد (٦) اما الكبر ، فقد افرد الجاحظ رسالة في ذمه ، حلل فيها مساوي الكبر الذي رآه مفتاح المعاصي وشر العيوب . قال :

" والكبر من جميع الناس قبيح ، ومن كل العباد مسخوط ، الا انه عند الناس من عظماء الاعراب ، واشباه الاعراب اوجد ، وهولهم اسرع ، لجفائهم ومعددهم من الجماعة ، ولقلة مخالطتهم لاهل العفة والورعة ، والادب والصنعة
وما ظنك بشي " العجب شقيقه والبهذخ صديقه ، والنفج أليفه ، والصلف عقيدته
وشر العيوب ما كان مضئا بعيوب ، وشر الذنوب ما كان علة لذنوب . والكبر اول ذنب كان في السماوات والارض ، واعظم جرم كان من الجن والانس واشهر تعصب كان في الثقلين . عنه لج اهلين فسي الطغيان وعنا على رب العالمين وخطأ ربه في التدبير ، ومن اجله اخرج من الجنة وقيل له : (ما يكون لك ان تتكبر فيها)

-
- (١) المصدر نفسه ، ص ٢٧٣ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ و ٢٧٧ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ص ٢٧٧ .
 - (٥) المصدر نفسه ، ٢٧٦ والآيات هي على التوالي : الفرقان : ٣٢ وهود : ١٥ ، والفرقان ٤ .
 - (٦) كما سنذكر في القسم المتعلق بمأخذ الجاحظ على بني امية .

معصيته اخرج آدم من الجنة ، وشهر في كل افق وامة . ومن اجله نصب
العداوة لذريته وتفرغ من كل شي* الا من اهلك نسله . . . والكبر هو
الذي زين لاهليس ترك السجود ، ووهبه شرف الانفة . . . وحبب اليه
المخالفة وآتسه بالوحدة والوحشة ، وهون عليه سخط الرب . . . وزين
له قول الزور ، وزهده في جوار الملايكة ، وجمع له خلال السوء ، ونظم له
خلال الشر ، لانه حسد والحسد ظلم ، وكذب والكذب ذل ، وخسـدع ،
والخدعة لوؤم . . . والكبر معنى ينتظم به جماع الشر ، والتواضع معنى
ينتظم به جماع الخير . . . ولو كان الكبر لا يعتري الا الشريف والجميل ،
او الجواد ، او الوفي او الصدوق ، كان اهن لامره . . . ولكننا نجده في
السفلة كما نجده في العلية ، ونجده في القبيح كما نجده في الحسن ،
وفي الدميم كما نجده في الجميل . . . وفي الذي ذى الجزية . . . كما نجده
في قابض جزيته . . . ولو كان في الكبر خير لما كان في دهر الجاهلية
اظهر منه في دهر الاسلام ، ولما كان في العبد افشى منه في الحر ، ولما
كان في السند اعم منه في الروم والفرس* . (١)

وباختصاره فان النبي قد لقي من عاصر دعوته ، اشد المكروه وقد استوى في
ايذاك من جمعته القربى به ومن لم تجمعها ايضا . قال :

* وليس بطن من بطن قريش الا وقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم منه
اعظم المكروه ، وان كانوا في ذلك على طبقات : من مجتهد لا يفتي ولا يفتـر
ولا يسأم ، ومن رجل ماؤس معهم بخلعه بيد معهم لضره - وان كان لا يبلغ ظو
الآخر وتصميمه وقلة اخفاله . ولقد كانت خزاعة وثقيف على بعد انسابها
وارحامها ، احسن تقية من قريش في اظهار العداوة والارصاد بالمكـروه
والشبات على البغي . . . على انهم قد اجلبوا وطعنوا وكفروا وكذبوا . . .
ولقد كان ابولهب على قربه وقربته ، شبيها بابي جهل في الغلظة والقسوة
والجفاء وكثرة التدري وقلة السامة . . . وكان بني عبد مناف على قرههم وقربتهم ،
اشد الخلق على رسول الله . . . * (٢)

(١) الجاحظ ، " كتاب في النبل والتنبل و ذم الكبر " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٢٥ -

١٨٢ . والملاحظ ان الجاحظ في انتقاده العرب الذين عاصروا النبي ، ينسب
انتقاده على اظهار الصفات وتقصي الاسباب التي اذت بهم الى مخاصة النبي ،
منتها الى انها ترجع الى خلق الكبر .

(٢) الجاحظ ، كتاب العشمانية ، تحقيق عبد السلام هارون ، (مصر : دار الكتاب العربي ،

١٩٥٥) ص ١٠١ - ١٠٣ .

إذا كانت تعاليم الاسلام دافعا اساسيا جعل الجاحظ ينطلق منها للتعبير عن جملة مآخذه على العرب ، فان العامل الديني لم يكن العامل الاوحد الذي صدرت عنه تلك المآخذ ، ان كان للسياسة نصيب في هذا الشأن ايضا . فارتباط الجاحظ باهل الحكم العباسي جعله اشبه ما يكون بالناطق الرسمي عن معتقدات ذلك الحكم ، والمدافع الاول عنها ازا ، خصوصها السياسيين ولا سيما بني أمية .

وقد انطلق الجاحظ من الجاهلية في انتقاده لبني أمية ، قائلا ان قيام بني هاشم بالايلاف ، وتأسيسهم حلف الفضول ، ودا عن استئثارهم باشراف خصال قريش في الجاهلية ، كاللوا ، والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابه (١) دون بني عبد شمس ، لسا يفتح باب المآخذ الدينية بشكل قوى على بني أمية ، ويتابع قائلا :

" . . . وصنع أمية في الجاهلية شيئا لم يصنعه احد من العرب ، زوج ابنة ابا عمرو امرأت في حياته منه ، فاولدها ابا معيط بن ابي عمرو بن أمية . والمقيتون في الاسلام هم الذين نكحوا نساء آبائهم بعد موتهم . فاما ان يتزوجها في حياة الاب ويبنى عليها وهو يراه فانه شيء لم يكن قط . . . " (٢)

ويؤكد الجاحظ تهافت بني أمية الديني من خلال ذكره لحوادث معينة في صدر الاسلام او خلال الحكم الاموي . اما في صدر الاسلام ، فان الجاحظ ينكر اى تفوق لبني أمية على بني هاشم فيما يتعلق بنبوة محمد لان الحسد والبغضة كانا ينعمان بنسي أمية من نصرته النبي . قال :

" . . . قال الله تعالى : (وانذر عشيرتك الاقربين) فلم يدع النبي صلى الله عليه وسلم احدا من بني عبد شمس ، وكانت عشيرته الاقربون بني هاشم وبني عبد المطلب ، وعشيرته فوق ذلك عبد مناف ، وفوق ذلك قصي . . . وقد علم الناس ان عبد مناف ولد اربعة : هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفلا . وان هاشم والمطلب كانا يدا واحدة وان عبد شمس ونوفلا كانا يدا واحدة . وكان ما ابطأ ببني نوفل عن الاسلام ابطأ ما اخوتهم من بني عبد شمس ، وكان ما حدث بني المطلب على الاسلام فضل

(١) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس ، " رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوي ،

ص ٦٧ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٥

ويعود الجاحظ ثانية الى تقصي باعث خلق الحسد الذي ادى الى امتناع
بنى امية وغيرهم عن نصرة النبي ، فمردّه الى عامل الكبر :

والمذكورون من الناس بالكرم ، ثم من قومش : بنو مخزوم وبنو أمية . ومن العرب : بنو جعفر بن كلاب وبنو زارة بن عدس خاصة . . . فاما بنو مخزوم ، وبنو أمية ، وبنو جعفر بن كلاب ، وبنو زارة بن عدس ، فأبطلهم ما وجدوا لانفسهم من الفضيلة . ولو كان في قوى عقولهم ودانتهم فضل على قوى راعي الحمية فيهم ، لكانوا كبني هاشم في تواضعهم وفي انصافهم لمن دونهم . . . " (٢)

ولم يأخذ الجاحظ على بني أمية انتاعهم عن نصره الاسلام وقت البعثة فحسب
وانما اخذ عليهم محاربتهم آل البيت النبوى خلال الفترات التاريخية اللاحقة :

... والعباس هو الذي منع الناس من قتل ابي سفيان وجاء به
 رديفا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . وتلك يد بيضا ونعمة
 غراء ومقام شهود . . . فكان جزاء بني هاشم من بنيه ان حاربوا عليا ،
 وسبوا الحسن وقتلوا الحسين وحملوا النساء على الاقتاب حواسر وكشفوا
 عن عورة علي بن الحسين حين اشكل عليهم بلوفه كما يصنع بذراري الشركين
 اذا دخلت دورهم عنوة . . . وقتل عبيد الله بن زياد يوم الطف تسعة
 من صلب علي وسبعة من صلب عقيل . . . واكلت هند كبد حمزة ، فغنهم
 آكلة الاكباد ، ومنهم كهف النفاق ، ومنهم من نقر بين شتيتي الحسين
 بالقضيب ، ومنهم القاتل يوم الحرة : عون بن عبد الله بن جعفر ، ويوم
 الطف : ابا بكر بن عبد الله بن جعفر . . . قال ابو عثمان : . . . وسميت
 ابا هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن ابي طالب ، ونهشتم زيدا وصلبتوه . . .
 وقتلتم الامام جعفر الصادق ، وقتلتم يحيى بن زيد وسميت قاتله نائـر
 مروان وناصر الدين . . . " (٣)

(۱) الجاحظ، "كتاب فضل هاشم علی عبد شمس"، "رسائل الجاحظ"، تحقیق السندوی،

ص ١١٢-١١٤ . والآية المذكورة هي من سورة الشعراء : ٢١٤ .

(٢) الجاحظ، كتاب الحيوان ٦٤ : ٧٠ - ٧٢

(۳) الجاحظ ، " کتاب فضل هاشم علی عبد شمس " رسائل الجاحظ ، تحقیق السندی ،

ويعلل الجاحظ سوء تصرف عمال بني أمية بأنه ينطلق من كفر قادتهم
المدعين للإمامة والخلافة عليهم لتحررهم من أحكام الكتاب والسنة :

"... فعندها استوى معاوية على الملك واستبد على بقية الشيعة ،
وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين في العام الذي سموا عام
الجماعة . وما كان عام جماعة ، بل كان عام فرقة وقهر وجبرية وظلمة ،
والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكا كسرويا ، والخلافة غصبا قيصريا ،
ولم يعد ذلك أجمع الضلال والفسق . ثم مازالت معاصيه من جنس
ما حكينا ... حتى رد قضية رسول الله صلى الله عليه وسلم ردا مكشوفاً ،
وبعد حكمه جحدا ظاهرا ، وفي ولد الفراه وما يجب للماهر ، مع أجمع
الامة ان سمية لم تكن لابي سفيان فراشا ، وأنه إنما كان بها عاهرا ،
فخرج بذلك من حكم الفجار الى حكم الكفار " (١) .

إذا فتصرف زياد بن أبيه وابنه عبيد الله بن زياد ، شعائر الله وآل بيته
رسول الله ، ليسا بشيء بالنظر الى الكفرة الاولى التي وسعت زيادا ابنا شرعا لابي
سفيان فاعطته الضوء الأخضر لتلك التصرفات :

"... فهذه اول كفرة كانت في الامة . ثم لم تكن الا فيمن يدعي امامتها
والخلافة عليها ... ثم الذي كان من يزيد ابنه ومن عماله واهل نصرته ،
ثم غزو مكة ورمي الكعبة ، واستباحة المدينة ، وقتل الحسين عليه السلام ...
فاحسبوا قتله (٢) ليس بكفر ، واباحه المدينة وهتك الحرمه ليس بحجة ،
كيف تقولون في رمي الكعبة ، وهدم البيت الحرام ؟ ... وكيف تقولون
في قول عبيد الله بن زياد لآخوته وخاصته : دعوني اقتله (٣) فانه بقيمة
هذا النسل ، فاحسم به هذا القرن ، واميت به هذا الداء ، واقطع به
هذه الطامة " (٤) .

(١) الجاحظ ، " رسالة في النابذة " رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ١٠ - ١١ . وانظر في
مطالب معاوية - الفقرة ٦٥١٨ من " رسالة في الحكمين " ، مجلة الشرق
ولاحظ تراجع الجاحظ عن تكفير معاوية الى تفسيره وتأنيبه في الفقرة ٧٣ و ٧١ من
المجلد المذكورة .

(٢) اي الحسين .

(٣) اي علي بن الحسين .

(٤) الجاحظ ، " رسالة في النابذة " رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ١٢ - ١٣ .

وهذا النص لا يدع مجالاً للشك بأن الجاحظ يوظف معلوماته الدينية في سبيل الانتقام من قدر خصوم العباسيين . وإذا كان في عصر معاوية قدر من حرية الكلمة ، فإن ذلك القدر انتفى بمجيء عبد الملك بن مروان الذي أنهى عصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالكلية :

" . . . فعبد الملك بن مروان أبوه ولا* الملوك الذين تفتخر الأموية بهم ، أغرق الناس في الكفر . . . وحسبك من جهله تبدل شرائع الدين والاسلام وهو يريد أن يلي أمور أصحابها بذلك الدين بعينه ! وحسبك من جهله أنه رأى من أبلغ التدبير في منع بني هاشم الخلافة أن يلحق علي بن أبي طالب على منابره . . . حتى قام عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد ، وعاطيهما الحجاج بن يوسف ، ومولاه يزيد بن أبي سلم ، فاعادوا على البيت بالهدم ، وعلى حرم المدينة بالغزو ، فهدموا الكعبة ، واستباحوا الحرم ، وحولوا قبلة واسط ، وآخروا صلاة الجمعة إلى مغير بن الشمس . . . وما يدل على أن القوم لم يكونوا إلا في طريق التمرد على الله عز وجل ، والاستخفاف بالدين ، والتهسان بالمسلمين ، والابتذال لأهل الحق ، أكل أمرائهم الطعام ، وشربهم الشراب ، على منابره أيام جمعهم وجمعهم . . . وذلك أن كان كفراً كله . . . " (١)

ويرى الجاحظ أن عراقة عبد الملك في الكفر لم تكن لكفره بالشرائع الدينية وشعائرها فقط ، وإنما لكفره بسلفه وأئمة الأمويين الذين أوصلوه الحكم :

" . . . وحسبك من جهله قيامه على منبر الخلافة قائلاً : اني والله ما انا بالخليفة المستضعف ، ولا بالخليفة المداهن ، ولا بالخليفة المأفون . وهو لا* سلفه وأئمة ، وشفعتهم قام ذلك المقام ، ويتقدمهم وتأسيسهم نال تلك الرئاسة . ولولا القادة المتقدمة والجنود المجندة والصنائع القائمة لكان أبعد خلق الله من ذلك المقام وأقربهم إلى الهلكة ان رام ذلك الشرف . وعنى بالمستضعف عثمان ، وبالمداهن معاوية ، وبالمأفون يزيد بن معاوية . وهذا الكلام نقض لسلطانه وعداوة لاهله . . . " (٢)

-
- (١) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ، ص ٨٠ و ٩٢ " رسالة في النابتة " رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ١٥ - ١٨
- (٢) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس " ، رسائل الجاحظ ، تحقيق السندوبي ، ص ٩٢ .

هكذا نكون قد بينا ان الجاحظ في مأخذ علي بن ابي طالب كان يضرب على وتر
العاطفة الدينية لا ايمانا بها فحسب ، وانما تزكية لمصلحة العباسيين السياسية ايضا .
وبعد ، فان هؤلاء الامويين لم يستحقوا الخلافة بالقرابة او السابقة الى الجهاد .
اذا لم يبق الا حق قرشيتهم " لان رواية الراوى ، الاثمة من قرش واقعة على كسل
قرش " (١) فيبقى المأخذ الا هم للجاحظ علي بن ابي طالب مأخذ دينيا - سياسيا ، لان بني
امية اخفقوا في تحقيق حديث النبي " الاثمة من قرش " ، لسبب اوضعه الجاحظ حين
قال " ان الرياسة في الدين لا تستحق بغير الدين والعمل الصالح " (٢) ، ولوان الواقع
التاريخي لبني امية يناقض هذا الحديث حين اثبتوا ان الرياسة في الدين تمت لهم
بالغصب القمصرى والملك الكسرى ، اى لاسباب القهر والجبرية والغلبة التي ليست
من الاسلام في شيء . قال الجاحظ في ملك عبد الملك بن مروان :

" ... ولولا القادة المتقدمة والاجناد المجندة والصنائع القائمة لكان ابعد
خلق الله من ذلك المقام ، واقربهم الى الهلكة ، ان رام ذلك
الشرف ... " (٣)

-
- (١) المصدر نفسه صفحة ٧٧ ونص الحديث " الاثمة من قرش " في مسند احمد
ابن حنبل ، الباب الثالث ص ١٢٩ و ١٨٣ والرابع ص ٤٢١ . عن المعجم
المفهرس لالفاظ الحديث النهوى ، (مادة أم) .
- (٢) الجاحظ ، كتاب العثمانية ، ص ٢١١ .
- (٣) الجاحظ ، " كتاب فضل هاشم على عبد شمس " رسائل الجاحظ ، تحقيق
السندوي ، ص ٩٢ .

تناول الجاحظ في مآخذ على معاصريه من عرب المجتمع العباسي، عاداتهم وخصائصهم . اما عامة عصره ، فقد اخذ عليها عدم طاعتها للخاصة وسلوكها المضطرب ازا' مسألة الامة ونشاطها الاعلامي ايضا . وفيما يتعلق بعدم طاعة العوام للخواص ، فقد رده الجاحظ الى علل واسباب كالعلل التي تعرض لجوارح الانسان . قال :

"ومقام العامة من الخاصة مقام جوارح الانسان من الانسان . . . وكما ان الجوارح لا تعرف قصد النفس ولا تروى في الامور ولم يخرجها ذلك من الطاعة للعزم ، فكذلك العامة ، لا تعرف قصد القادة ولا تدبير الخاصة ، ولا تروى معها . . . والجوارح والعوام وان كانت مسخرة ومدبرة - فقد تمتنع لعلل تدخلها ، وامور تصرفها ، واسباب تنقضها ، كالهدى يعرض لها الفالج واللسان يعثر به الخرس ، فلا تقدر النفس على تسديدهما ، وتقويتهما ، ولو اشتد عزهما . . . وكذلك العامة عند نفورها وتهيجها ، وظلمة الهوى والسخف عليها ، وان حسن تدبير الخاصة ، وتعهد الساسة . غير ان معصية الجارحة ايسر ضررا ، واهون امرا ، لان العامة اذا انتكحت للخاصة وتنجرت للقادة ، وتشترنت على الرضاة ، كان البوار الذي لاحيلة له ، والفناء الذي لا بقاء معه . " (١)

(١) الجاحظ ، " مقالة العشائرية " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٣٦ - ٣٧ . والملاحظ في انتقاد الجاحظ لهذه الشريحة الهامة من المجتمع العباسي المعاصر له ، تاثر الجاحظ بالفكر اليوناني حين شبه الطبقات الاجتماعية بقوى انسانية كما فعل افلاطون مع فارق دقيق هو ان الجاحظ شبه الطبقات الاجتماعية بجوارح الانسان في حين شبهها افلاطون بالقوى النفسية كالقوة المفكرة والقوة الغضبية والشهوية . انظر : جمهورية افلاطون ، بالانكليزية :

Plato, The Republic of Plato, translated by Francis Macdonald, (Oxford : Oxford University Press) pp. 119, 129, 139.

اما سلوك العامة المضطرب ازاء مسألة الامة فمفاده ان العوام المعاصرين للجاحظ اما انهم افراطوا في التعلق بامام دون غيره او انهم لم يعوا ضرورة اقامة الامام العادل كما سنرى . قال الجاحظ في مأخذ الافراط الذي يعكس عدم اعمال الفكر في مسائل الدين ، استثقالا للتمثيل وبغضا للتحصيل واستمرارا في التقليد :

... " ووجه آخر يستدل به على قلة عناية الناس بامر الدين وان شأنهم تعظيم الرجال والاستسلام للنشأ والذهاب مع العصبية والهوى والرضى بالسابق الى القلوب واستثقال التمثيل وبغض التحصيل ، ما نجد من انقياد اكثر البصريين وسوادهم لتقديم عثمان بن عفان ومن انقياد اكثر الكوفيين لتقديم علي بن ابي طالب ومن انقياد اكثر الشاميين لديسين بني امية وتعظيم عثمان وحب بني مروان ، حتى غلط لذلك قوم فزعسوا ان ذلك من قبل الطالع ... ومن عمل التربة ... وليس ذلك - اكرمك الله - الا من قبيل تقليد السلف وحب الرجال وما وقع في القلوب وهيجته المحبة ، لان تقليد الآباء هو الذي ارتهنهم وحب الرجال هو الذي اعماهم واصبهم ... ولو كان ذلك من قبل الطالع او التربة ، لما حسن الامر والنهي ، ولما جاز الحمد والثواب واللائمة والعقاب ، ولما كان لارسال الرسل معنى ... فصح ان دين الناس بالتقليد لا بالنظر ، وليس التقليد الى الحق باسرع منه الى الباطل . " (١)

ويبدو ان الجاحظ رد اخطاء العامة الى دائرة الاختيار الانساني والهوى الشخصي فقط دون ان يكون للعوامل المادية اي اثر حتمي على خطأ الانسان . واذا كان افراط اهل الكوفة والبصرة والشام في التعلق بامام دون غيره مذمة ، فان في تقصير المصنف الآخر من العوام في ادراك ضرورة اقامة الامام مذمة ايضا الى درجة ان الجاحظ عد من يجهل " معنى الامة وضرورة الخلافة الراشدة ، (٢) " بانه ينتهي الى فئة العامة الغفلة ، وذلك " لاستسلامها لدواعي الهوى وتحررها من رقابة الدين وانطلاقها وراء كل ريح تهب وناشئة تنجم ، (٣) " فباتت هذه الفئة لا تفصل بين فضل وجود الامة ونقص عدمها .

(١) الجاحظ ، " الاخبار وكيف تصح " ، المجلة الآسيوية ، ص ١٠١ - ١٠٢

(٢) الجاحظ ، " مقالة العثمانية " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٣٦ .

(٣) المصدر نفسه .

وهذا الاتجاه النقدي غير بعيد عن حديث للرسول " من مات بغير امام مات ميتة جاهلية . " (١)

اما مأخذ الجاحظ الاخير على عوام عصره فهو قائم على ما بدر منها من نشاط اعلامي بات يخشى منه على تدبير الخاصة من اهل المجتمع العباسي . ولذلك نصيب الجاحظ نفسه لمعالجة هذا الصنف من العوام الذين " لولا ان لهم متكلمين ، وقصاصا متفقهين . . . لم يلحقوا بالخاصة ، ولا بأهل المعرفة التامة . ولكننا كما نخافهم نرجوهم ، وكما نشفق منهم نطمع فيهم . " (٢) لقد خشي الجاحظ منهم لان نشاطهم الكلامي اصبح يولف خطرا قد يلون الواجهة الفكرية السياسية لمبادئ المعتزلة الثابتة . لذلك السبب ، خط الجاحظ رسالته " في نفي التشبيه " ووجهها الى القاضي أبي الوليد محمد بن ابي دؤاد (٣) يعبر فيها عن ثورته على كيفية سماح المعتزلة باختراق صفوفهم على يد سفلة القوم من رؤساء العوام . . . الذين اشعلوا فتنة واضرموا نارا (٤) حين اندسوا في صفوف المعتزلة واصبحوا بمناصبهم المستحدثة خطرا على مبادئ الخاصة . قال الجاحظ :

" . . . فكيف صاروا في باطلهم ايام قدرتهم اقوى منا في حقنا امام قدرتنا ؟ " (٥)

(١) انظر مسند احمد بن حنبل ٤ : ٩٦ ، عن المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي .

(٢) الجاحظ ، "رسالة في نفي التشبيه" ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٢٨٥ .

(٣) الرسالة موجهة له كما ذكرنا ، لا لوالده احمد بن ابي دؤاد لان الاخير - صاحب القول بخلق القرآن ايام المعتصم والواثق - كان اكثر ليونة مع رؤساء العامة . فاستغل الجاحظ حمية الشباب التي في ابنه ، كي يستطيع دفع مصالح المعتزلة التي واجهها بلاء العوام والمشبهة . انظر : الجاحظ ، "كتاب صناعة الكلام" ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢٤٣ .

(٤) الجاحظ ، "مقالة العثمانية" ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٤١ .

(٥) الجاحظ ، "رسالة في نفي التشبيه" ، المصدر نفسه ، ١ : ٢٨٧ .

والخطر ثابت لانه " على العلماء ان يخافوا دول العلم كما يخاف الطغوى دول الطغاة " (١) وبمت الداء ان للعوام رؤسا . قال الجاحظ :

" . . . والعوام - ابقاك الله - اذا كانت نشرا ، فامرها امير ومسددة هيجها اقصر . فاذا كان لها رئيس حاذق ومطاع مدبر ، وامام مقلد ، فعند ذلك ينقطع الطمع ، ويموت الحق ، ويقتل المحق (٢)

وقد رأى الجاحظ ان في منازعة العوام للخاصة ، الكلام في " القدر والاستطاعة والتكليف " بلاء لا يخفى على احد ، خصوصا انه معني بتوجيه رجال الدولة العباسية ، فلم يسكن التفاضل عن البلاء المتمثل في رؤية كل انسان من المسلمين نفسه متكفلا (٣) . قال :

" . . . ولونطق عالم بحرف في القدر حتى يذكر العلم والشبهة ، والتكليف والاستطاعة ، وهل خلق الله تعالى الكفر وقدره اولم يخلقه ولم يقدره ، لم يبق حمال اغثر ، ولا بهطال غث ، ولا خامل غفل ، ولا غبي كهام ، ولا جاهل سفيه ، الا وقف عليه ولا حاء وصوبه وخطاه (٤)

ولذلك صب الجاحظ غضبه على عامة عصره حتى يخال القارى ان الجاحظ يقصد عرب الجاهلية لا عرب المجتمع العباسي وذلك لاشتراكهم في العيوب الجاهلية . قال :

" وضرب آخر من الناس : هيج هامج ورعاع منتشر ، لا نظام لهم ، ولا اختبار (٥) عندهم ، اعراب اجلاف ، واشباه الاعراب ، يفترقون مسن

- (١) الجاحظ ، " كتاب خلق القرآن " ، المصدر نفسه ، ج ٣ : ٣٠٠ .
- (٢) الجاحظ ، " رسالة في نفي التشبيه " ، المصدر نفسه ، ج ١ : ٢٨٤ - ٢٨٥ .
- (٣) الجاحظ ، " رسالة الرد على النصارى " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣٢٠ .
- (٤) الجاحظ ، " مقالة العشانية " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٤٠ - ٤١ . والجدير بالذكر ان الجاحظ لم يكن يخشى على القاضي ابن ابي دواد من العامة فحسب وانما خشي ايضا على الخليفة المعتصم الذي اخذت مجالسه يفساها اولئك المضلون من العوام ، خاصة وان المعتصم في نظر الجاحظ لم يكن يتمتع بالقوة التي كانت للمؤمنين في دفاعه عن مصالح المعتزلة وحماية فكرها الديني من هجمة العامة عليها .
- (٥) وردت بلفظ " اختبار " ايضا . انظر " كتاب استحقاق الامة " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٢١٢ .

حيث يجتمعون ، ويجتمعون من حيث يفترون ، لا تدفع صولتهم اذا
 هاجوا ولا يؤمن هيجانهم اذا سكنوا . ان اخصبوا طغوا في البلاد وان
 اجذبوا آثروا العناد . هم موكلين ببغض القادة ، واهل الثراء والنعمة ،
 يمتنن النكبة ، ويمشون بالعثرة ، ويسرون بالجوقة ، ويمتقون الدائرة .
 وهم كما وصفوا ، الطغام والسفلة وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه
 في دعائه : " نعوذ بالله من قوم اذا اجتمعوا لم يملكوا ، واذا افترقوا
 لم يعرفوا . " فهو " هو " ، هو " هو " (١)

اي ان هو " الذين ذكرهم علي بن ابي طالب وتوجس منهم ، هم الاعراب
 انفسهم والعوام الضالون في عصر الجاحظ . وبالتحديد هم ذلك العنف المتفوق
 المدعو " بالناطقة والمشبعة " (٢) الذي قزا مجالس المعتزلة بسلطانه الكلامي المستحدث ،
 بعد ان رفض القول بخلق القرآن ، ولذلك فهم كما قال الجاحظ " دائبون في التأسيم
 من المعتزلة ، عدد هم كثير ونصيبهم شديد ، والعوام معهم والحشويط معهم " (٣)
 ذكرنا مآخذ الجاحظ في عامة عصره ، اما مآخذه في خاصة عصره فيعكسها قوله
 التالي الذي يحصر مشاكل المجتمع العباسي في العلاقة غير المتحققة بين
 العامة والخاصة وبالتحديد في تدبير الخاصة وطاعة العامة لها . فاذا كانت العامة

-
- (١) انظر الجاحظ ، " مقالة الزيدية والرافضة " رسائل الجاحظ ، ٤ : ٣١٤ - ٣١٥ .
 وقد تكرر النص بصيغ ماثلة في " كتاب استحقاق الامة " ، المصدر نفسه ، ٤ :
 ٢١٢ و " رسالة في نفي التشبيه " المصدر نفسه ، ١ : ٢٨٣ .
 (٢) للجاحظ رسالة خاصة في النابتة ضمن رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٣ - ٢٥ ، وهي
 الفئة صاحبة المآخذ اعلاه التي قرنها الجاحظ بالعوام (المصدر المذكور ص ٢٠)
 وبالبتدعة (ص ١٢ و ص ١٤) . وبالرافضة (ص ١٨) . وقد كتب الجاحظ هذه
 الرسالة في هذه الفئة التي كانت تضاد الفكر المعتزلي والسياسة العباسية وتساند
 الامويين والحنابلة مستخدمة في ذلك كله " الكلام " . راجع :

Charles Fellat, *The life and works of Jāhiz*, translated
 by D.L. Hawke, (University of California press, 1969),
 p. 18.

- (٣) الجاحظ ، " كتاب في خلق القرآن " رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣٠٠ .

- كما تقدم - لا تطيع الخاصة ، فان المشكلة مضاعفة لان الخاصة ، وهي العلاج الباقي كما يوصي الجاحظ ، بحاجة الى تصويب بعد ان اتخمت بالاسباب وافترقت الى التدبير . قال الجاحظ :

" صلاح الدنيا وتام النعمة في تدبير الخاصة وطاعة العامة . كما ان كمال المنفعة وتام درك الحاجة بصواب قصد النفس . . . فالخاصة تحتاج الى العامة كحاجة العامة الى الخاصة ، وكذلك القلب والجراحة ، وانما هم جند للدفع ، وسلاح للقطع . . . وليس في الأعمال اقل من الاختيار ولا في الاختيار اقل من الصواب . فلها ب كل عمل اختياره ، وصفوه كل اختيار صوابه . ومع كثرة الاختيار يكثر الصواب ، واكثر الناس اختيارا اكثرهم صوابا ، واكثرهم اسبابا موجبة اقلهم اختيارا ، واقلهم اختيارا اقلهم صوابا . " (١)

ولعل الجاحظ يقصد بكثرة الاسباب الداء الذي غزا العرب التي لم يكن لها من الاسباب ما توفر للعباسيين الذين ابطرتهم اسباب الملكية والترف وتعرضوا لاختلاف مظاهر الغزو الحضاري والثقافي الفارسي . ولقد اشار الجاحظ الى ذلك حين قال :

" . . . دولة بني العباس عجمية خراسانية ، ودولة بني مروان عربية اعرابية . . . " (٢)

فهذا القول قد يكون اطلقه الجاحظ بسبب ملاحظته انتشار الظاهر والراسم الفارسية في البلاط والمجتمع العباسي ، كانعزال الخليفة عن الرعية ووجود الجلاذ وغيرها من الظاهر التي تؤكد سلطة الخليفة واستبداده . وكأن الجاحظ لم يملك الا التذمر من هذه الظاهر التي تمثل تحديا لمجتمع النبوة والخلافة الراشدة . قال الجاحظ :

" قد يستخر الله الملك ليقوم باسباب قديمة واسباب حديثة ، فلا يزال الملك مقصورا عليهم ، ما دامت تلك الاسباب قائمة ، اذ كانوا للملك مستخرين ،

(١) الجاحظ ، " مقالة العثمانية " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ٣٧ - ٣٨ .

(٢) الجاحظ ، " البيان والتبيين " ، ٣ : ٣٦٦ .

وكان الناس لهم مسخرين بالجبرية والنخوة ، والفظاظة والقسوة ، ولطول الاحتجاب والاستتار ، وسوء اللقا ، والتضييع . (١)

فالجاحظ يأخذ على العباسيين استتارهم عن الناس - وإن لم يجروا على تسميتهم - إلا بالاشارة على انهم قوم سخر الله لهم الملك باسباب قديمة ، هي نبوة محمد ، واسباب حديثة هي التي عددها اعلاه .

ويظهر انزعاج الجاحظ الضمني من ظاهرة الاستتار والحجاب لدى الخلفاء العباسيين من خلال تخصيصه رسالة كاملة في هذا الموضوع ، دار معظمها في خبر من عوتب على احتجاجه . وقد لمح الجاحظ الى محاولات اصلاح هذه الظاهرة فنسب الملوك حين قال : " ان الملوك اذا اتت ما يجل من المعاتبة ضربت لها الامثال وعرض لها بالحديث . . . وان السعيد من وعظ بغيره " (٢) فالجاحظ مدرك للهوة الفاصلة بين مثالية عهد النبوة وبين عجية عهد بني العباس ومع هذا فهو لم يأل جهدا في التوجيه والاصلاح فاستهل رسالته في الحجاب بما ورد في الاثر في النهي عنه :

" . . . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : " ثلاث من كن فيه من الولاة اضطلع بامانه وامره : اذا عدل في حكمه ، ولم يحتجب دون غيره ، واقام كتاب الله في القريب والبعيد . . . ويوصي عمر عماله فيقول : اياكم والحجاب ، واظهروا امركم بالبراز . . . وكتب عمر رضوان الله عليه الى معاوية وهو عامله على الشام : " اياك والاحتجاب دون الناس ، وأذن للضعيف وادنه حتى ينسبط لسانه ويجترى قلبه . . . " (٣)

هايراد رأى الجاحظ الناقد لسلوك الخاصة والعامة من معاصريه من عرب المجتمع العباسي نكون قد انهينا عرض القسم المتعلق بآخذه في عرب الجاهلية وصدر الاسلام وعرب الدولة الاموية والعباسية .

(١) الجاحظ ، " رسالة حجج النبوة " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢٤٥ .

(٢) الجاحظ ، " كتاب الحجاب " ، رسائل الجاحظ ، ٢ : ٢٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ٢ : ٣٠ - ٣١ .

من يدرس اقوال الجاحظ في غير العرب يلحظ ان جعبة الجاحظ ممتلئة
الفضائل اتسعت لتشمل اما غير عربية لم يخف الجاحظ اعجابه بها او تقديره لها .
فالعرب وان كانت استأثرت بالرسالة ، فان ذلك لم يعن في نظره استثناها بجملة
الخيرات المفاضة من الله على جميع الخلق لانه من باب العدل ان يكون لهذه
الام نصيب في هذه الخيرات والمناقب . قال :

"... واهي الله الا ان يقسم نعمه بين طبقات جميع عباد . قسمة
عدل يعطي كل قرن وكل امة حصتها ونصيبها ، على تمام مراشده
الدين ، وكمال مصالح الدنيا ."(1)

بيد انه تجدر الاشارة الى ان الجاحظ فتح عينيه على مناقب الامم بالقدر
الذي يصب في مصلحة الخلافة العباسية . فهو يرى ان العباسيين في حكم من اقبلت
الدنيا عليه بمحاسن غيره . وبالتالي فان محاسن الامم المعتمدة التي ظلت تنتقل بين
الامم الى ان ورثها العرب خاضعة الى نوع من التسخير اعطاها دورا وظيفيا آخر
غير الدور المحلي المعهود ، هو رفادة الخلافة العباسية وترسيخ فضلي الملوك
والنبوة (2) المجتمعين فيها . وقد لاحظ الجاحظ ان خيرات الامم هذه تتميز
بالاختصاص الحضاري الذي يسم كل امة باسهم حضاري معين يغلب عليها
كاختصاص "اهل الصين في الصناعات ، واليونانيين في الحكم والآداب ، والعرب فيما
نحن ذاكره في موضعه ، وآل ساسان في الطك ، والترك في الحروب"(3) وهي مزايا
حضارية مقدّر لها ان تصب في بوتقة الخلافة العباسية ، التي ما كانت لتبلغ ذلك
الفضل لو لم تسبقها الامم اليه . قال الجاحظ :

-
- (1) الجاحظ ، "كتاب في الوكلاء" ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٠٣ .
(2) انظر : الجاحظ ، "رسالة في النابتة" ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٢١ .
(3) "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٧ .

وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونانية ، وحولت آداب الفرس .. من امة الى امة ومن قرن الى قرن ومن لسان الى لسان ، حتى انتهت الينا وكنا آخر من ورثها ونظر فيها . . . ولولا ما اودعت لنا الاوائل فسي كتبها ، وخلدت من عجيب حكمتها ، ودونت من انواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا الى قليلنا كثيرهم ، وادركنا ما لم نكن ندركه الا بهم ، لقد خسر حظنا من الحكمة ، ولضعف سبيلنا الى المعرفة . ولولجأنا الى قدر قوتنا ، ومنتهى تجاربنا . . . لقلت المعرفة وسقطت الهمة . . . ولكل الحد وتباعد العقل . (١)

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٨٥ و ٨٦ - ٨٧ . ويذهب بعض الدارسين الى عد الجاحظ اول من عبر عن مفهوم انتقال حكم الامم الى العقل العربي من خلال انتقاله التدريجي السابق من امة الى امة . انظر :

Tarif Khalidy, Islamic Historiography, (Albany: State University of New York Press, 1975) p. 82.

وانظر ايضا :

Franz Rosenthal, Technique & Approach of Muslim Scholarship (Rome: Pontificium Institutum Biblicum, 1947), p. 71.

الفصل الثاني

الهند

مناقب الهند :

لقد لخص الجاحظ اسهام الهند الحضارى ، وخاصة في الحساب والطب والخط والادب بقوله :

" واما الهند فوجدناهم يقدمون في النجوم والحساب ، ولهم الخط الهندى خاصة ، ويقدمون في الطب ، ولهم اسرار الطب وعلاج فاحش الادواء خاصة . ولهم خرط التماثيل ونحت الصور بالاصباغ تتخذ فسي المحاريب^(١) واشياء ذلك . ولهم الشطرنج ، وهي اشرف لعبة واكثرها تدبيرا وفطنة . ولهم السيوف القطعية^(٢) ، وهم ألعب الناس بها واحذقهم ضربا بها . ولهم الرقى النافذة في السموم وفي الاجاع . ولهم غنا* معجب . ولهم الككلة ، وهي وتر واحد يمد على قرعة فيقوم مقام اوتار العود والصنج . ولهم ضربوب الرقص والخفة ، ولهم الثقافة عند الثقاف خاصة^(٣) ، ولهم معرفة المناصفة^(٤) ، ولهم السحر والتدخين والدامازكية^(٥) . ولهم خط جامع لحيروف اللغات ، وخطوط ايضا كثيرة . ولهم شعر كثير وخطب طوال ، وطب في الفلسفة والادب . وعنهم اخذ

- (١) ورد النص نفسه في موضعين : " كتاب فضل السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢٢٣ - ٢٢٤ " و" كتاب الاخبار وكيف تصح " ص ٩٧ . مع فروقات بسيطة في الالفاظ . والجملة المذكورة وردت في الموضع الثاني : " مع التصوير بالاصباغ كزى المحاريب " ص ٩٧ .
- (٢) السيوف القطعية نسبة الى القطعة ، وهي قلعة عظيمة ببلدة تسمى " كله " وهي اول بلاد الهند من جهة الصين وفيها تضرب السيوف القطعية . والجملة نفسها وردت في " كتاب الاخبار وكيف تصح " ولهم صنعة السيوف الهندية " ص ٩٧ .
- (٣) الثقاف حديدة او خشبة تكون مع القواس والرماح يقوم بها ما اعوج من الرماح . انظر : ابن منظور " لسان العرب " مادة ثقف .
- (٤) لم اهتم الى مدلولها في المعاجم .
- (٥) الدمازكية او الترمازكية كما يقول المحقق عبدالسلام هارون ، ضرب من اللعوق الطبي . انظر " كتاب فخر السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢٢٣ .

كتاب كليملة ودمنة . ولهم رأى ونجدة . وليس لاحد من اهل الصبر ما لهم (١) . ولهم من الرى الحسن والاخلاق المحمودة مثل الاخلاق والقرن والسواك ، والاحتيا ، والفرق والخضاب . وفيهم جمال وملح واعتدال وطيب عرق . والى نسايتهم يضرب الامثال . ومن عندهم جازا والطسوك بالعود الهندى الذى لا يعدله عود . ومن عندهم خرج علم الفكر ، وما اذا تكلم به على السم لم يضر (٢) . واصل حساب النجوم من عندهم ، اخذه الناس خاصة . وآدم عليه السلام انما هبط من الجنة فصار يبلارهم . (٣)

هذه هي جملة المناقب التي وجدها الجاحظ في امة الهند ، وهي مناقب تعكس التفاعل الثقافي والتجارى السائد بين المجتمع الهندى والمجتمع العربى . اما التفاعل الثقافى فواضح من اقراره بفضل الهند في علوم الطب والحساب والتأليف القصصى ولهم الفلك . اما التفاعل التجارى فيظهر من معرفة الجاحظ بالسيف الهندية وآلات عزفهم وتسليمتهم المعروفة بالكنكة ، ناهيك عن العود الهندى ذى الرائحة الطيبة .

-
- (١) نسب الجاحظ سمة الصبر من قبل للعرب والترك واصناف السودان .
(٢) لعل الجاحظ يقصد بذلك عادة الهند في التأمل الفكرى مع ما يتطلبه من مقامات واحوال . انظر مادة "سترا" في :

- Encyclopaedia of Religion, s.v. "Sutra and Sastra Literature," by Ludo Rocher.
- The Ramakrishna Mission Institute of Culture, Cultural Heritage of India, (Calcutta, 1958), 1: 243-245.

ولعله يقصد ايمانهم بالرقى والتعاون والعزائم . راجع في ذلك : البهرونى ، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مردولة ، (الهند : حيدرآباد الدكن ، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٨) خاصة الفصل المتعلق بهذا الموضوع ص ١٥٤-١٥٥ . وانظر ايضا : الجاحظ "كتاب الحيوان" ، ٤ : ١٤٨ .

- (٣) اشار الى ذلك ايضا ابوحيان في تفسيره : البحر المحيط (القاهرة : دار السعادة ، ١٣٢٨) ١ : ١٦٣ . بيد ان شارل بلا رأى ان المسلمين قالوا ان آدم حين نزل الارض انما نزل ببابل . انظر : كتاب التبريع والتدوير ، فقرة ٦٤ .

وقد خَصَّ الجاحظ ما لعلم الخطوط والحروف الهندية من فضل على علوم
الفكر وبالتالي ما أسهمت الحضارة الهندية في الحضارة الانسانية . قال الجاحظ فسي
ذلك :

* ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير والبسيط ، ولبطلت
معرفة التضاعيف ، ولعدوا الا حاطة بالباورات (١) وباورات الباورات ، ولو
ادركوا ذلك لما ادركوه الا بعد ان تغلظ المؤونة وتنتقض السنة ولصاروا
في حال معجزة وحسور والى حال مضيفة وكلال حد . . ونفع الحساب
معلوم ، والخلة في موضع فقدت معروفة . قال الله تعالى : الرحمن علم
القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان . ثم قال : الشمس والقمر بحسبان (٢) .
وبالبيان عرف الانسان القرآن . وقال الله تعالى : هو الذي جعل
الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب (٣) .
فاجرى الحساب مجرى البيان بالقرآن . وبحسبان منازل القمر ، عرفنا
حالات المد والجزر ، وكيف تكون الزيادة في الأهلة وانصاف الشهور ،
وكيف يكون النقصان في خلال ذلك ، وكيف تلك المراتب وتلك الاقدار . .
فأى نفع اعظم وأى مرفق اعون من الخط والحال فيه كما ذكرنا . ولولا
الكتب المدونة والاخبار المخلدة والحكم المخطوطة التي تحصن الحساب
وغير الحساب ، لبطل اكثر العلم ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر
ولما كان للناس مفرغ الى موضع استدكار (٤)

(١) لم اعثر على معنى هذا اللفظ في تفسير البيروني لنظام الهند الحسابي . انظر :
البيروني ، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة . . ص ١٣٢ - ١٤٣ . ولكن
الاستشرق شارل بلا قال في تفسيره لهذه الكلمة في ادب الجاحظ انها تعكس
بد * معرفة الرياضيين العرب بالنظام الحسابي لدى الهند ، وبالتحديد ، النظام
العشري . وفهم الاستشرق ان الباورات هي تلك المذكورة في كتاب البيروني
بصيغة البهري (Bhuri) وانها تدل على الرقم ١ مضاعفا ثمان عشرة
مرة . (10¹⁸) انظر : الجاحظ ، * كتاب التربيع والتدوير ، تحقيق بلا ،
الفقرة ٣٧ ص ٢٥ و ١١٣ . وقد ذكر الجاحظ ان * العكان * هو الكثير الذي
لا يكون فوقه عدد . راجع : الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٦ : ٢٣٠ .

(٢) الرحمن : ١

(٣) يونس : ٥

(٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٤٦ - ٤٨ .

وما خص الله به الهند في نظر الجاحظ ان على ارضها الحيوانات التالية ،
كالغيل والبهير والطاوس والبهغا والدجاج السندی والكركدن . قال :

" والهند اصحاب البهير والغيول كما ان النوبة اصحاب الزرافات
ون غيرهم من الامم . واهل فانة انما صار لباسهم جلود النمر لكثرة
النمر بها الا انها على حال موجودة في كثير من البلدان . . . اما الغيل
والبهير والطاوس والبهغا والدجاج السندی والكركدن ما خص الله
به الهند . " (١)

واورد الجاحظ نظرية لغوية للهند في سبب اختلاف اللغات . قال :

" وتزعم الهند ان سبب ما له كثر كلام الناس واختلفت صور الفاظهم
ومخارج كلامهم ، ومقادير اصواتهم في اللين والشدّة وفي المدّ والقطع ،
كثرة حاجاتهم . ولكثرة حاجاتهم كثرت خواطرهم وتصاريف الفاظهم ، واتسعت
على قدر اتساع معرفتهم . قالوا : فحوائج السنانير لا تعد وخسة اوجه :
منها صياحها اذا ضربت ولذلك صورة . وصياحها اذا دعت اخواتها
والآفها ، ولذلك صورة . وصياحها اذا دعت اولادها للطعم ، ولذلك
صورة . وصياحها اذا جاءت ، ولذلك صورة . فلما قلّت وجوه المعرفة
ووجوه الحاجات ، قلّت وجوه مخارج الاصوات . واصواتها تلك فيما بينها
هو كلامها . " (٢)

والجدير بالذكر ان الجاحظ عدّ الهند من جنس السودان الذين يفضلون
البهضان في نظره ، بالخصائص المذكورة آنفا وخاصة التي وردت في رسالة فضل السودان
على البهضان . وان " السندی " في مفهوم الجاحظ غير الهندی لان الاول وان كان
من السودان ، ويسكن قرب بلاد الهند فقد عدّه الجاحظ من " الاجناس الذليلة " (٣) ،
وبالتالي هو بعيد عن الامم المعتبرة وترك معالجته الى حينه من الرسالة (٤) . ولا نجسد

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٧٠ : ١٣٤ و ١٧٠ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٤٠ : ٢١ - ٢٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ٦ : ٧١ وكتاب التربيح والتدوير ، الفقرة ٤٧ .

(٤) في الفصل المتعلق بمطالب السودان ، وذلك في الباب الثاني من الرسالة .

في سائر كتابات الجاحظ في مناقب الهند الا اشارات بسيطة كالتي تعكس اعجابه
بقول في الحكمة لطفك هندي (١) او بتتبع الهند بخلق الحنين الى الاوطان (٢).

(١) كاستشهاده بقول لطفك هندي: "اذا تكلمت بكلمة ملكتني، وان كنت املكها".

انظر الجاحظ في المحاسن والاضداد، ص ١٨ .

(٢) الجاحظ، "رسالة في الحنين الى الاوطان"، رسائل الجاحظ، ٢: ٣٨٥ .

اما الذي اخذه الجاحظ على الهند فهو انهم يجمعون الى الحكمة في دنياهم ، جهلا عظيما في امور دينهم . قال :

" . . . وهم مع ما ذكرنا ، اصحاب بدعة ، (وهي جمع بد والبد الصنم) يحتونها بايديهم ثم يعيدونها ويجعلون لها بيوتا كمساجد المسلمين وفيها بنات رؤسائهم موهوبة لتلك البدعة (١) على وجه التقرب بها والنذور والكفارات ؛ وتلك النساء واقعة للفساد والفجور يأمرها اهلها بذلك ويرون ان لهم فيه اجرا عظيما ، ولهم عباد ورهبان في تلك البيوت متجردون عن اللباس ، يدعون الزهد في الدنيا ، لا يسون الماء ويتبركون باوساخهم ، ويختبرونهم بتلك النساء وملاعبتها . فمن اشتاق من اولئك العباد الى تلك النساء وهاج ، فقد كسر كفرا عظيما واتى باعظم منكر والحقوه انواع العذاب والنكال وقتلوه . هذا فسي الزهاد خاصة ، فاما غيرهم فلا ينكرون عليهم الفجور بتلك النساء . واذا اشتاق الهنود الى زيارة موتاهم اضرمو النيران وحملوا معهم الهدايا واللطائف وتضمخوا بالصندل وتكفئوا ورموا بانفسهم في تلك النيران ويزعمون انهم يرجعون الى اهلهم اذا قضا وطرا من زيارة موتاهم . وهذا عجيب في جمع الهنديين الحكمة في دنياهم والجهل العظيم في دينهم " . (٢)

(١) البدعة هي الاصنام ويبدو ان الجاحظ قد ألف كتابا في هذا الموضوع دعاه كتاب الاصنام ذكره في جملة مؤلفاته التي عدّها في مقدمة كتاب الحيوان ١ : ٥ ، ساوى فيه في النقد بين العرب والهند على انهم عباد البسدة ووجه الشبه بينهما في رأيه " ان عباد البدعة المتسكين بعبادة الاوثان المنحوتة والاصنام المنجورة ، اشد الديّانيين الفاندانوا به وشفقا بما تعبّدوا له واظهرهم جدا واشدّهم على من خالفهم ضغنا ، وبمادانوا ضنا . " كتاب الحيوان ١ : ٥ . اى ان العرب والهند لا يتنازلون بسهولة عن اصنامهم لشدة سيطرة التقليد على عقولهم . وكلمة البدعة (بكسر الباء وفتح الدالين) التي استعملها الجاحظ هي من الكلام الفارسي المعرب . مفردا البد اى الصنم ونسي القاموس انه معرب بُت . انظر الجواليقي : المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم ، تحقيق احمد شاكر (القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٦١هـ) ص ٨٣ . وقد اشار الجاحظ الى مسألة عبادة الاصنام لدى الامم في كتاب التربيع والتدوير فقرة ١٣٤ ص ٧٦ .

(٢) الجاحظ ، كتاب " الاخبار وكيف تصح " ، ص ٩٨ . وانظر ايضا رسالة الجاحظ في الحكمين ، مجلة المشرق ، ص ٤٧٣ .

ولم يتعرض الجاحظ الى نقد عادات الهند الدينية فحسب وانما نقد آراءهم
في امور الطب والحيوان كانتقاده لمفهوم الهند للبرص . قال : " واطباء الهند تزعم
ان العقوق يورث البرص ، وهذه القصة مجانبة لسبيل الطب . . . " (١)

وكذلك انتقد الجاحظ رأى علماء الهند في حيوان الكركدن اذا حان وقست

ولادته :

" وقد قالوا في ولدها وهو في بطنها قولا لولا انه ظاهر على السنة
الهند ، لكان اكثر الناس ، بل كثير من العلماء يدخلونه في باب الخرافة
وذلك انهم يزعمون ان ايام حملها اذا كادت ان تتم ، واذا نضجت وجسرى
وقت الولادة ، فربما اخرج الولد رأسه من ظبيتها فأكل من اطراف
الشجر ، فاذا شبع ادخل رأسه ، حتى اذا تمت ايامه وضاق به مكانه ،
وانكرته الرحم ، وضعت مطبقا قويا على الكسب . . . ولا اقر ان الولد يخرج
رأسه من فرج امه . . . ثم يدخل رأسه ، ولست اراه محالا ولا مستنعا في القدرة
ولا مستنعا في الطبيعة . . . الا ان قلبي ليس يقبله . . . ولم نجد القرآن
ينكره . . . والله هو القادر دمن خلقه ، ولست ابت بانكاره وان كان
قلبي شديد السيل الى رده . . . " (٢)

كما تعرض الجاحظ بالنقد لآراء الهند في علم الكيمياء . قال :

" والسم يقتل بالكم والكيف والجنس . والكم : المقدار . والكيف :
الحد . والجنس : عين الجوهر وذاته . وتزعم الهند ان السم انما
يقتل بالخرابة ، وان كل شي غريب خالط جوف حيوان قتله . وقد ابنى
ذلك ناس فقالوا : " وما به باله يكون غريبا اذا لاقى العصب واللحم وربما كان
عاملا فيهما جميعا . بل ليس يقتل الا بالجنس وليس تحسن النفس
الا بالجنس . ولو كان الذي يميت حسنها انما يميت لانه غريب ، جاز ايضا
ان يكون الحساس انما حس لانه غريب . ولو كان هذا جائزا لقليل في كل شي .
وقال ابن الجهم : لولا ان الذهب المائسج ،

(١) الجاحظ ، كتاب البرصان والعرجان . . ص ٣٦ - ٣٧ . وقد علق الجاحظ

على هذا الزعم بقوله : " وهذا مما لا يعرف في الطب . " انظر : كتاب الترميم

والتدوير ، الفقرة ١٥٦ ص ٨٤ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٧ : ١٢٣ و ١٢٥ .

والفضة المائعة ، يجمدان اذا صارا في جوف الانسان ، واذا جمدا
لم يجاوزا مكانهما - لكنا من القوائل بالخرابة ... " (١)

وقد ساوى الجاحظ في انفاق المجوس على بيت النار وفي انفاق الهنود
على سدنة البدة من جهة ، وبين انفاق الزنادقة على تحسين كتبهم الذي وصل
حد المغالاة . (٢) اما ظاهرة الاستيحاش وادعاء الهند مخاطبة الجن لهم ، ومع
تفنن سدنتهم في خداع الناس فمما اخذه الجاحظ على هذه الامة ايضا . قال :

" . . . وكانت لسدنة الهند حيل وألطف لمكان التكسب . ولو سمعت
اورأيت بعض ما قد اعد الهند من هذه المخاريق في بيوت عباداتهم ،
لعلمت ان الله تعالى قد من على جملة الناس بالمتكلمين ، الذين قد
نشأوا فيهم " . (٣)

-
- (١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٤٤ : ٣١٩ .
(٢) المصدر نفسه ، ١ : ٥٥ - ٥٦ .
(٣) المصدر نفسه ، ٦ : ٢٠١ والمخاريق يراد بها تلك الالاعيب التي يلجأ اليها
المشعوذون واحدها مخراق . انظر الحيوان ٤٤ : ٣٧٨ . هذا مع العلم ان
الجاحظ يرى هلاك المتكلمين لولا المعتزلة . انظر المصدر نفسه ، ٤ : ٢٨٩ .

الفصل الثالث

=====

الفـرس

=====

مناقب الفرس :

عَدَّ الجاحظ الفرس من الامم المعتمدة اي من الامم التي عليها المعتمد في العقل والبيان والرأى والادب والاختلاف في الصناعات " (١) وقد اوجز مناقبها بقوله :

"... ثم ملنا الى فارس ، فوجدنا هناك العقول التي لا تبلغها عقول
والاحلام التي لا تشبهها احلام ، والسياسة العجيبة والملك المؤيد
بتدبير الامور والعلم بالعواقب" (٢)

ولم يخف الجاحظ اعجابه بالاقوال الحكيمة الفارسية ، التي استشهد بها في كتاباته ، قال :

"... وقال حكيم الفرس حين بلغه موت الاسكندر وهو قاتل دارا بن دارا : ما ظننت ان قاتل دارا يموت . وهذا القول هو امدح منه لقاتله . ولم اسمع للمعجم كلمة قط امدح منها ، واما العرب فقد اصبحت لهم من هذا الضرب كلاما كثيرا ... وقال بهرام ، وقد سمع في الليل صوت طائر فتحنأ : يسهم وهو لا يراه ، الا انه تتبع الصوت فصرعه فلما صار بين يديه قال : والطير ايضا لو سكت كان خيرا له ... وقال ديوست المغني لكسرى حين امر بقتله ، لقتله تلميذه بلهيد : قتلت انا بلهيد وتقتلني فمن يطربك ؟ قال : خلوا سبيله ، فان الذي بقي من عمره هو الذي انطق بهذه الحجة ... وقال اردشير : احذروا صولة الكريم اذا جاع واللثم اذا شبع ..." (٣)

(١) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " المجلة الآسيوية ، ص ٩١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٠ .

(٣) انظر : الجاحظ ، " رسالة في نفي التشبيه " ، رسالة الجاحظ ، ج ١ : ٣٠٤ و " رسالة كتمان السر وحفظ اللسان " ، المصدر نفسه ، ج ١ : ١٦٢ و " رسالة في الجد والهزل " ، المصدر نفسه ، ص ٢٥٨ ، والبيان والتبيين ، ج ٢ : ١٦٩ . وبهرام هو اسم لعدة ملوك من الفرس اشهرهم بهرام جور بن يزدجرد ، ملك ثلاثا وعشرين سنة ونشأ عند ملوك الحيوة كما قال المسعودي في التنبيه والاشراف (بيروت : مكتبة ==

وقد حفل كتاب المحاسن والاضداد بطائفة من اقوال الحكمة الفارسية هذه ،
قال الجاحظ :

"... قال الكسرى : وقع كسرى بن هرمز الى بعض المحبسـمـين
من صير على النازلة كان كمن لم تنزل به . . ومن أكل بلا مقدار تلفت
نفسه . . وقال بهرام جور : " من احب ان يعرف فضل الجود على سائر
الاشياء فلينظر الى ما جاد الله به على الخلق من المواهب الجليلة
والرغائب النفيسة والنسيم والريح كما وعدهم الله بالجنان ، فانه لولا رضا
الجود لم يصطفه لنفسه . " وقال بزرجمهر : " من انتظر بمعروفه شـسـرك
عاجل المكافأة . " ووجد في كتاب من كتب بزرجمهر صحيفة مكتوب فيها :
" ان حاجة الله الى عباد ان يعرفوه ، فمن عرفه فلم يعصه طرفعين . . " (١)

ومن مناقب الفرس ما ذكره الجاحظ من اخلاق ملوك الفرس في الصيد ، قال :

"... وزعموا ، وكذلك هو في كتبهم - ان ملوك فارس كانت لهجة بالصيد ؛
الا ان بهرام جور هو المشهور بذلك . . . كان الملك من الاكاسرة اذا
اصطاد عيرا وسه باسه ، ويومه الذي اصطاده فيه ، واطلقه ، فان تهيأ
ان يصطاد ذلك العير بعينه ملك من بعده ، وسه مع وسم الملك
الذي قبله بمثل تلك السمة وخلاؤه يذهب . . . فعرف آخرهم صنيع
اولهم ، وعرفوا مقدار مقادير اعمارها . . . " (٢)

وقد اشار الجاحظ بحسن ادارة الفرس في توزيعهم الاعمال على ذوى الاختصاص
قال :

"... ولم يجعلوا للصانع ان ينتقل عن صناعته الى الكتابة ، ولم يجعلوا
للكتاب ان ينتقل من كتابته الى القيادة ، ولم يجعلوا لابنائهم الا شـمـل

(=) خياط ، (١٩٦٥) ، ص ١٠١ وانه "كان فصيحاً بالعربية وله بها شعر صالح" . واما
كسرى المذكور فهو كسرى ابرويز بن هرمز احد ملوك الساسانيين في عهد بعثة
النبي محمد . اما اردشير بن بابك فكانت الفرس تعول على تاريخ ملكه في تاريخ
سنواتها وتحصيل ايام ملوكها . انظر المصدر نفسه ، ص ١٣٧ . و اردشير بن
بابك المذكور هو اول ملوك الساسانية ، فهو ابن بابك بن ساسان . ملك اربع عشرة
سنة ثم سلم الملك الى ولده سابور . وكان اردشير افلاطوني المذهب . انظر المصدر
نفسه ، ص ١٠٠ .

(١) الجاحظ ، المحاسن والاضداد ، ص ٦٣٣ و ٥٤٥ و ٩٥٢ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٤٠ و "كتاب في البغال" رسائل الجاحظ ، ٢ : ٣١٢ .

ما كان لآبائهم ، ليعودوا الناس عادة يستوحشون معها السبي
الخروج منها (١)

ولاحظ الجاحظ ان من مناقب ملوك الفرس ايضا ، فضيلة الحنين الى الاوطان ،
مع ما تعكسه من " طيب العنصر ونفاسة الجوهر " (٢) قال :

" ووجدنا من العرب من كان اشرف على نفسه وافخر في حسيبه ومن
المعجم : من كان اطيب عنصرا وانفس جوهرًا - اشد حنينًا الى وطنه ،
ونزاعًا الى تربته . . . وحكى الموبذ انه قرأ في سيرة اسفنديار بن يستاسف
ابن لهراسف ، بالفارسية ، انه لما غزا بلاد الخزر ليستنقذ اخته من الاسر ،
اعتل بها ، فقليل له : ما تشتهي ؟ قال : شاة من تربة بلخ ، وشربة من ماء
واد بها . واعتل سابور ذو الاكثاف (٣) بالروم ، وكان مأسورا ، فقالت له
بنت ملك الروم وقد عشقته : ما تشتهي ما كان فيه فذاؤك ؟ قال : شربة
من ماء دجلة ، وشاة من تربة اصطخر . فغبرت عنه اياما ثم اتته يوما بماء
الفرات ، وقبضة من تراب شاطئه ، وقالت : هذا من ماء دجلة وهذه من
تربة ارضك ، فشرب واشتم من تلك التربة ، فشف من مرضه . . . ولما افتتسح
وهرزبن شيراز بن بهرام جور اليمين ، وقتل ملك الحبشة المتغلب
على اليمين ، اقام بها عاملا لانوشروان ، فبنى نجران اليمين - وهي مسن
احصن مدن الثغور - فلما ادركته الوفاة اوصى ابنه شيراز ان يحمل الى
اصطخرناوس ابيه ، ففعل به ذلك . فهو لا الملوك الجبابرة الذين
لم يفتقدوا في اغترابهم نعمة ، ولا غادروا في اسفارهم شهوة ، حتى السبي
اوطانهم ، ولم يؤثروا على تربتهم وساقط رؤوسهم شيئا من الاقاليم
المستفادة بالتغازي والمدن المغتصبة من ملوك الامم . (٤)

(١) الجاحظ ، العثمانية : ١٨٦ . وقد اتى هذا الكلام في معرض كلام الجاحظ
عن سلمان الفارسي .

(٢) الجاحظ ، " رسالة الحنين الى الاوطان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٤٠٧ .

(٣) سابور ذو الاكثاف ، ملك فارس ، حمل نصارى المشرق على التجسس فامتنعوا من ذلك
وقتل منهم نحو من مئتي الف . راجع المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ١٤٩ .

(٤) الجاحظ ، " رسالة الحنين الى الاوطان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٤٠٧ - ٤٠٩ .

ومن مناقب الفرس وبالتحديد اهل خراسان ، ساهمتهم في الدعوة العباسية وترسيخها كما يستفاد من قوله : دولة بني العباس عجمية خراسانية (١) . وما ان هناك فرقا بين المدلول الجغرافي لمصطلح اهل خراسان ، والمدلول السكاني له ، فلا بأس من استخراج اقوال الجاحظ فيمن يقصده بالفضل المذكور ، وبالتحديد في الخراسانيين الفرس والخراسانيين الابناء ، (٢) دون الخراسانيين الترك والخراسانيين العرب .

اما الخراسانيون الفارسيون فقد نسب الجاحظ لهم نصيبا من الفضل في ساهمتهم في نصرته الدعوة العباسية ، وخاصة طبقة اشرافهم او ما يسمى بالآزاد مديسة . قال :

“ . . . والخراساني يقول : نحن النقباء وابناء النقباء . . . ونا الدعاة قبل ان تظهر نقابة . . . وقبل كشف القناع وزوال التقيّة وزوال ملك اعدائنا

(١) الجاحظ ، البيان ، ٣ : ٣٦٦ .

(٢) ان مصطلح اهل خراسان يشمل ثلاثة اجناس كما هو واضح في “ رسالة مناقب الترك ” للجاحظ . فالخراسانية هم سكان اقليم خراسان المحليين اي هم الايرانيين المحليون الذين دخلوا في الاسلام اثر الفتوحات الاسلامية لديارهم كسما يشملون فئة الابناء او البنويعين الذين هم خراسانيون من جهة الولادة ، راجع “ رسالة مناقب الترك ” ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٣١ . والخراسانية هم الاترك الذين استقروا واستوطنوا في اقليم خراسان من بلاد فارس ، اي هم الفئة المستحضرة من الترك القادمة من بلاد ما وراء النهر وقد عرفوا بالخراسانية لوجودهم في خراسان . قال الجاحظ : “ ان الاختلاف بين الخراسانيين والتركي كالاختلاف بين البدوي والحضري والسهلي والجبلي ” المصدر نفسه ، ص ١٠ . والخراسانية هم ايضا القبائل العربية المستوطنة في خراسان اشرس الهجرة من البصرة والكوفة والشام لاغراض الفتوح العسكرية . قال الجاحظ : والخراسانية هم ابنا العرب والاعراب الذين نزلوا خراسان . المصدر نفسه ، ص ٦٣ . والخلاصة ان الجاحظ شمل في رسالته المذكورة بالفضل اهل خراسان جميعا لرغبته في جمع شمل جند الخلافة العباسية . وما دام الكلام يدور حول مناقب الفرس ، فالمقصود بالفضل هم الخراسانيون الفرس والخراسانيون الابناء .

عن مستقره، وثبات ملك اوليائنا في نصابه . . . وما الزغفسدية
والآزادمردية . . . ونحن اهل هذه الدولة واصحاب هذه الدعوة ومنبت
هذه الشجرة . . . والانصار انصاران : الأوس والخزرج نصروا النبي
صلى الله عليه وسلم في اول الزمان ، واهل خراسان نصروا ورثته في آخر
الزمان . . . وليس في الارض صناعة غريبة من ادب وحكمة وحساب وهندسة
وايقاع وصناعة وفقه ورواية نظرت فيها الخراسانية الا فرعت فيها الروسا*
وبرزت فيها العلما* (١)

واما البنيويين او الابنا* فهم كما يقول الجاحظ خراسانيون من جهة الولادة ، ولهم
فضلهم ايضا في الدعوة العباسية . قال :

" . . . ان البنيوي قال : انا اصلي خراسان ، وهي مخرج الدولة ومطلوع
الدعوة ، ومنها نجم هذا القرن وصبا هذا الناب ، وتغجر هذا ينبوع . . .
وفرعي بغداد وهي مستقر الخلافة . . . وفيها بقية رجال الدعوة ، وابنا*
الشيعة ، وهي خراسان العراق ، وببيت الخلافة . . . وانا اعرق في هذا
الامر من ابي واكثر تردادا فيه من جدى (٢) . ولنا بعد في انفسنا

(١) الجاحظ ، " مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ١٤ ، ١٥ ، ٢٠ . ولا يستبعد
الدارس فاروق عمران يكون غير العرب قد اشترك في الدعوة العباسية ، الا انه
لا يمكن مقارنتهم بالعرب من حيث الدور والفعالية . وهذا القول الذي يرى ان
اكثرية الدعاة كانوا عربا ، (فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، بيروت : دار
الارشاد ، ١٩٧٠ ص ١٣٣ - ١٣٤ و ١٥٩ - ١٦٠ و ٣٠١) ، يطرح استفساما
حول مقولة الخراسانيين اعلاه وخاصة الآزادمردية التي هي طبقة اشراف الفرس
اي الطبقة الارستقراطية الايرانية المتعاهدة مع ولاة بني امية على اخذ الضرائب
من العرب المستوطنين ، اي انها كانت ضد الدعوة العباسية المهددة لمصالحهم
وامتيازاتهم فكيف يساهم الفرس النبلاء في ثورة لا مصلحة لهم فيها ؟

(٢) في ذلك اشارة الى ما قلناه من ان اصلهم خراساني اي فارسي من جهة الولادة ،
فمصطلح الابنا* يعني اولئك الذين اجتذبتهم الحروب من بلاد فارس الى جزيرة
العرب منذ ان استنجد سيف بن ذي يزن بكسرى (٥٣١ - ٥٧٩ م) ، لينصره على
الحبشة التي غزت اليمن ، بارسال قائده وهرز . وقد ملكوا اليمن وتزوجوا في العرب
فقليل لا ولا هم الابنا* ، لان امهاتهم من غير جنس آبائهم . فالابنا* ، اي اولاد
المهاجرين الفرس ، يفخرون اعلاه انهم افضل من آبائهم الذين نصروا العرب في
الجاهلية . انظر : الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، ج ١ : ٥٣ ومادة ابنا* في :

ملا ينكر من الصبر تحت السيوف القصار والرماح الطوال . . . ونحن
اهل الشبات عند الجولة والمعرفة عند الحيرة . . . وزينة العساكر وحلوس
الجيوش . . . ونحن اصحاب الفتك والاقدام . . . نقاتل بالليل كما
نقاتل بالنهار . ونحن اصحاب الخط والكتابة والفقه والرواية . ولنسا
بغداد باسرها تسكن ما سكنا ، وتتحرك ما تحركنا والدنيا كلها معلقة
بها وصائرة الى معناها . . . ونحن بعد تربية الخلفاء وجيران الوزراء ،
ولدنا في افنية ملوكنا ونحن اجنحة خلفائنا . . . (١)

(١) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢٥ - ٢٨ .

ما اخذه الجاحظ على الفرس ، اعتناقهم لدين زرادشت (١) وقد تناول فسي ذلك الخاصة والعامة . والمقصود بالخاصة " كسرى ابرويز وآباؤه واحباؤه وقرايبه وكتابه واطباؤه وحكماؤه واساويرته " (٢) واما العامة فقد قال فيها الجاحظ وقد دعاها بالمجوس :

" . . . وكانوا يفشون الامهات ويأكلون السميتة (٣) ويتوضؤون بالابوال والماء موجود عندهم . ويعظمون النار وهم اظهروها وان شاءوا اطفؤوها . ويقولون ان الله كان وحده لا شيء معه فلما طالت وحدته استوحش فلما استوحش ففكر فلما فكر تولد من فكرته " اهرمن " وهو ابلس . فلما مثل بين يديه اراد قتله . فلما اراد قتله امتنع فصالحه الى اجل معلوم ووادعته الى مدة مسماة . . ثم ان اهرمن نوى الغدر ، وذلك شيمته . فانشأ يخلق اصناف الشر يستمد بها عليه ، فلما عرف ذلك منه انشأ يخلق اصناف الخير ليضع باراً كل جند جندا . . ثم قالوا في قصة العوالسم عندهم وفي اسمائها وجواهرها وهيئاتها وفي خلق مهنة ومهينة وهما آدم وحواء . وفي سويين المنتظر عندهم ما لا يستطيع وصفه احسب منقوص ولا عالم تام ولو جهد كل جهده واستفرغ كل قوته . . . " (٤)

(١) زرادشت رجل ظهر في عهد كيشتاسب بن كيلهراسب ، من ملوك الفرس . وقد اتاه بدين المجوسية فقبلها الملك وحمل اهل مملكته عليها وقتل عليها . وكان الفرس قبل ذلك على رأى الحنفا الصابئين . انظر : السعوى ، التنبيه والاشراف ، ص ٩٠ . وزرادشت هو صاحب البستاق وشرحه الزنديستا . ظهر قبل الاسكندر بنحو ثلاثمئة سنة على ما في التنبيه والاشراف ، ص ٩٨ . وقد ظهر من بعده " مزدق " فتأول الابستا وجعل لظاهرها باطنا واستخلص من ذلك الديانة المزدقية . انظر المصدر نفسه ، ص ١٠١ . وقد دعا زرادشت دعوتة - كما يروى السعوى - خلال الطبقة الثالثة من ملوك الفرس . اما مزدق فخلال الطبقة الخامسة من ملوك الفرس .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٣) اشار الجاحظ الى ان الفرس انما فعلوا ذلك استجابة لزرادشت الذي دعا الى نكاح الامهات . انظر : كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٢٤ . وأشار ايضا الى أكلهم المتردية والمنخنة . المصدر نفسه ، ٤ : ٩٥ .

(٤) الجاحظ ، " كتاب الاخبار " ص ١٠٠ - ١٠١ .

وقد تناول الجاحظ في كتاباته المظاهر المختلفة لدين زرادشت بالنقد والسخرية ، كقوله في تعظيم زرادشت لشأن النار وعلّة تخويفه أصحابه بالبرد والثلج دونها :

" زرادشت هو الذي عظم النار وأمر بأحيائها ، ونهى عن أطفالها ، ونهى الحيض عن مسها والدنو منها . وزعم أن العقاب في الآخرة إنما هو بالبرد والزهرير والدمق . وزعم أصحاب الكلام أن زرادشت - وهو صاحب المجوس - جاء من بلخ وأدعى أن الوحي نزل عليه على جبال سيلان . وأنه حين دعا سكان تلك الناحية الباردة ، الذين لا يعرفون إلا الأذى بالبرد ، ولا يضربون المثل إلا به . . . فلما رأى موقع البرد منهم هذا الموقع ، جعل الوعيد بتضاعفه ، وظن أن ذلك أضر لهم عما يكره . وزرادشت في توعده تلك الأمة بالثلج دون النار ، مقرباً له لم يبعث إلا إلى أهل تلك الجبال . وكأنه إذا قيل له : أنت رسول إلى من ؟ قال لا أهل البلاد الباردة ، الذين لا بد لهم من وعيد ، ولا وعيد لهم إلا بالثلج . وهذا جهل منه ، ومن استجاب له أجهل منه . . . فلو كان المبالغة في التنفير والزجر أراد ، وإلى قصد ، لذكر ما هو في الحقيقة عند الأمم أشد . والوعيد بما هو أشد ، وبما يحتمل الخوف سكان البلاد الباردة والحارة أشبه ، إذا كان المبالغة يريد . " (١)

أما مقولة اتباعه من المجوس في بدء الخلق فقال فيها الجاحظ :

" . . . وزعم المجوس أن الناس من ولد مهنة ومهينة . وأنهما تولّدا فيما بين أرحام الأرضين ، ونطفتين ابتدرتا من عيني ابن هرمز حين قتله هرمز . وحماقات أصحاب الاثنين كثيرة في هذا الباب . . . " (٢)

وقد فصل الجاحظ مقولة المجوس أن الفأرة من خلق الله وأن السنور من خلق الشيطان ، كما في النص الذي ورد آنفاً ، وتناولها بالنقد والتعجب ، قال :

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٦٦ - ٦٨ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١٠ : ١٩٠ .

" ويزعم زرادشت وهو مذهب المجوس ان الفأرة من خلق الله وان السنور من خلق الشيطان ، وهو اهل من ، وهو اهرمن . قيل له : كيف تقول ذلك والفأرة مفسدة وتجذب فتيل الصباح فتحرق بذلك البيت والقبائل الكثيرة ، والمدن العظام والارياض الواسعة ، بها فيها من الناس والحيوان والاموال ، وتقرض دقات العلم ، وكتب الله ، ودقائق الحساب ، والصكاك . . . والناس ربما اجتلبوا السنائر ليدفعوا بها بوائق الفأرة (١) فكيف صار خلق الضار المفسد من الله ، وخلق النافع من الضر من خلق الشيطان ؟ . . . وقال : لان السنور لو بال فسي البحر لقتل عشرة آلاف سمكة . فهل سمعت بحجة قط ، او بحيلة ، او باضحوكة او بكلام ظهر على تلقيح هرة ، يبلغون هذا الاعتلال ؟ فالحمد لله الذي كان هذا مقدار عقولهم واختيارهم (٢)

كما ان الجاحظ لم يملك الا تنفيذ مقولة ثانية للمجوس الذين رأوا ان العظايا فاتها نصيبها من السموم التي كان يوزعها " اهرمن " على عالم الحيوان ، فقال :

" . . . وزعم زرادشت ان العظايا ليست من ذوات السموم . . . وان اهرمن لما قعد ليقيم السموم ، كان الحظ الا وفر لكل شيء سيق الى طلبه ، كالا فاعي والشعابين والجوارات . . . فاما العظاية ، فانها احتبست عن الطلب حتى نغذ السم . . . فلما جاءت العظاية وقد فني السم ، دخلها من الحسرة وما علاها من الكرب ، حتى جعلت وجهها الى الخرابات والمزابل . فاذا رايت العظاية تمشي مشيا سريعا ثم تقف ، فان تلك الوقفة انما هي لما يعرض لها من التذكر والحسرة على ما فاتها من نصيبها من السم . . . ولا اعلم العظاية في هذا القياس الا اكثر شروا من الوزغ ، لانها لو لا افراط طباعها في الشرارة ، لم يدخلها من قوة الهيم مثل السحذى دخلها (٣)

(١) ذكر الجاحظ هذه القصة ايضا في كتاب الحيوان ٥ : ٣١٩ وقال : " فالامم كلها على التفادى من الفأرة واتخاذ السنائر لها . "

(٢) الجاحظ ، الحيوان ٤ : ٢٩٨ - ٣٠٠ .

(٣) العظاية هي دويبة ، انظر المصدر نفسه ، ٤ : ٢٩٦ - ٢٩٧ .

وروى الجاحظ الفرس بالتناقض والحقاقة لجهلهم ان العظامة اكثر شراً من الافعى . قال :

"... ولم ار قولاً اشد تناقضاً ولا اموق من قولهم هذا لان العظامة لم يكن ليعتربها من الاسف على فوت السم ، على ما ذكروا اولاً ، الا وفي طبعها من الشرارة الغريزية اكثر مما في طبع الافعى ."^(١)

وقد سلك الجاحظ مسلكاً تعليلياً في عرض مأخذه على الفرس حين استنتج بأن عقيدتهم لا تتبع احكام العقل ، وانما تتبع المنشأ والتقليد . قال :

"... فان تعجبت من استسقاطي لعقل كسرى ابرويز وآباءه ، واحبائه وقرايينه ، وكتابه واطبائه ، وحكمائه واساورته - فاني اقول في ذلك قسولاً تعرف به اني ليس الى العصبية ذهبت ... فداية المنشأ والتقليد داء لا يحسن علاجه حالينوس ولا غيره من الاطباء . وتعظيم الكبراء ، وتقليد الاسلاف ، والاف دين الآباء ، والانس بما لا يعرفون غيرهم ، يحتاج الى علاج شديد ، والكلام في هذا يطول . فان آثرت ان تتعجب ، حتى دعاك التعجب الى ذكر ابرويز ، فاذا ذكر سادات قريش فانهم هم فوق كسرى وآل كسرى ."^(٢)

واذا كان داء التقليد والمنشأ سبباً في اعتناق كسرى وخاصته ، للزرادشتية ، فان سبيل زرادشت نفسه مع قومه كان يعتمد في مفهوم الجاحظ ، على عوامل اخرى كشروع الفساد وانعدام الحرية فيما بين عامتهم وخاصتهم . قال الجاحظ :

"... وزرادشت بهذا العقل دعا الناس الى نكاح الامهات ، والسي التوضو بالبول ... ولولا انه صادف دهره في غاية الفساد وامة فسي غاية البعد من الحرية ... لما تم له هذا الامر . وقد زعم ناس ان ذلك انما كان وانما تم لانه بدأ بالملك ، فدعاه على قدر ما عرف من طباعته وشهوته وخلقه . فكان الملك هو الذي حمل على ذلك رعيته^(٣) . ولا يجوز ان يكون الملك حمل العامة على ذلك الا بعد ان يكون زرادشت - الفى على ذلك الفساد اجناد الملك . ولم يكن الملك لمقوى على العامة باجناده ، وبعشرة

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٦٤ : ٤٦٠ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٥ : ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٣) راجع السعوى ، التنبيه والاشراف ، ص ٩٠ .

اضعاف اجناده ، الا ان يكون في العامة عالم من الناس ، يكونون
اعوانا للاجناد على سائر الرعية . . . وقد ينبغي ان يكون ذلك
الزمان كان افسد زمان ، واولئك الاهل كانوا شر اهل . ولذلك لسم
ترقط ذا دين تحول الى المجوسية عن دينه . ولم يكن ذلك المذهب
الا في شقهم وصقعههم من فارس والجبال وخراسان ، وهذه كلها
فارسية (١) .

ولم يكف الجاحظ بسرد المآخذ الدينية على الفرس وانما خصهم ايضا بنقد
سلوكهم الاجتماعي وبالتحديد ما شاع في اقليم خراسان واقليم الاهواز من بلاد فارس .
اما خراسان ، فقد لاحظ الجاحظ شيوع البخل في انسها وحيوانها ، قال :

... نبدأ باهل خراسان لاكثر الناس في اهل خراسان . ونخص بذلك
اهل مرو ، بقدر ما خصوا به من بخل . قال ثامة بن الاشرس (٢) : لم
ار الديك في بلدة قط الا وهو لا يظ يأخذ الحبة بمنقاره ثم يلفظها
قدام الدجاجة ، الا ديك مرو ، فاني رأيت ديك مرو تسلب الدجاجة ما في
مناكيرها من الحب . فعلمت ان بخلهم شي في طباع البلاد ، وفي
جواهرها ، فمن ثم عم جميع حيوانهم . فحدثت بهذا الحديث
احمد بن رشيد ، فقال : كنت عند شيخ من اهل مرو . وصبي له صغير يلعب
بين يديه . فقلت له : اما عابثا واما متعنا . اطعمني من خبزكم ، قال :
لا تريد ، هو مر . فقلت : فاسقني من ما ثكم . قال : لا تريد ، هو مالح .
قلت : هات لي من كذا وكذا . قال : لا تريد ، هو كذا وكذا . الى ان
عددت اصنافا كثيرة . كل ذلك يمنعني ويغضه الي . فضحك ابوه وقال :
ما ذنبنا ؟ هذا من علمه ما تسمع ؟ يعني ان البخل طبع فيهم وفسي
اعراقهم وطينتهم (٤)

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٢٤ - ٣٢٦ .

(٢) ثامة بن الاشرس من أئمة المعتزلة في عهد المأمون . اسمه ابو بشر ثامة بن
الاشرس النخعي . كان خصيصا بالمأمون . انظر ابن خلكان ، وفيات الاعيان ،
تحقيق احسان عباس ، (بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٢) ج ٦ : ١٧٧ .
(٣) الجاحظ ، البخلا ، ص ١٣ .

واما الاهواز فقد قال الجاحظ انها لم تعرف بأثرة حميدة لكونها مجمع الشرور والاهثة ولان فسادها لم ينج منه من سكنها من بني هاشم ايضا ، وذلك لفساد عقول الاهواز ولو لم طبع بلادهم . قال :

واما قصة الاهواز ، فانها قلبت كل من نزلها من بني هاشم السي كثير من طبائعهم وشمالهم . ولا بد للهاشمي ، قبح الوجه كسان او حسنا ، او دميما كان او بارعا رائعا ، من ان يكون لوجهه وشماله طبائع يبين بها من جميع قريش وجميع العرب . فلقد كادت البلدة ان تنقل ذلك فتبدله ، ولقد تخيفته وادخلت الضيم عليه وبيئت اثرها فيه ، فما ظنك بصنيعها في سائر الاجناس ؟ ولفساد عقولهم ولو لم طبع بلادهم ، لا تراهم مع تلك الاموال الكثيرة ، والضياح الفاشية ، يحبسون من البنين والبنات ما يحبه اوساط اهل الامصار على الثروة واليسار ، وان طال ذلك . . . وليس في الارض صناعة مذكورة ، ولا ادب شريف ، ولا مذهب محمود ، لهم في شي* منه نصيب وان خص . ولم اربها وجنة حمرا* لصبي ولا صبية . . . وهي قتالة للغربا* . وعلى ان حياها خاصة ليست للغريب يا سرع منها الى القريب . وهاؤها وحياها ، وفي وقت انكشاف الربا* ونزوع الحق عن جميع البلدان . . . وكذلك جمعت سوق الاهواز (١) الافاعي . . . ولو كان في العالم شي* هو شر من الافعى والجؤارة ، لما

(١) سوق الاهواز احد الاماكن الوبئة التي كان يضرب بها المثل في فساد الهوا* واعتلال الصحة . وهو قصة بلاد الاهواز او خوزستان ، وما يسمى الان عرستان . انظر :

Le Strange, Lands of the Eastern Caliphate. (Cambridge, 1905), p.232.

والاهواز جمع هوزاو خوزي ، نسبة لقبيلة محاربة ، نمت تحت الحكم الاموي والعباسي ، وقد حصلت ثورة الزنج فيها خلال القرن الثالث الهجري ، التاسع م . انظر :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Al-Ahwāz," by L. Lockhart.

وقد ذكر ياقوت الرومي الحموي في معجم البلدان ، ما يدل على انه كان ينقل من الجاحظ . قال : " واهل الاهواز معروفون بالبخل والحق وسقوط النفس . ومن اقام بها سنة نقص عقله . وقد سكنها من الاشراف فانقلبوا الى طباع اهلها وهي كثيرة الحق ووجوه اهلها مصفرة مغبرة . وقال مستشهدا باحمد بن محمد الهمداني : اهل الاهواز الأم الناس وابخلهم . . . وليس في الارض صناعة مذكورة ولا ادب شريف ولا مذهب محمود لهم في شي* منه نصيب . . . وهي قتالة للغربا* . كسرت (=)

قصرت قصة الاهواز عن توليده وتلقيحه ! ومن اقام بالا هواز حولا فتفقد عقله ذو فراسة ، وجد النقصان فيه بيّنا .^(١)

وما انتقده الجاحظ ايضا في اهل الاهواز صعوبة لغتهم لكثرة مخارج حروفهم :

واللغات انما تشتد وتعسر على المتكلم بها ، على قدر جهلها بما كنسها التي وضعت فيها وعلى قدر مخارجها وخفتها وسلسها وثقلها وتعقدها . في انفسها ، كغرق ما بين الزنجي والخوزي . فان الرجل ينتخس في بيع الزنج وابتاعهم شهرا واحدا فيتكلم بعامة كلامهم ، ويبايع الخوز ، ويجاورهم زمانا فلا يتعلق منهم بطائل والمخارج لا تحصى ولا يوقف عليها . وكذلك القول في حروف كثيرة من حروف لغات العجم ، وليس ذلك في شيء ، اكثر منه في لغة الخوز . وفي سواحل البحر من اسيا ف فارس ناس كثير كلامهم يشبه الصغير^(٢)

بذلك نكون عرضنا آراء الجاحظ في مناقب الفرس ومثالبها .

(٣) بسوقها الافاعي ، وفي جبلها الطاعن في منازلها ، المظل عليها ، والجرارات فسي بيوتها ومنازلها ومقابرها . ومن بليتها ان من ورائها سباحا ومناقع ماء غليظة . فاذا التقى عليهم ما انجر من تلك السباح وما قذفه ذلك الجبل فسد الهواء ، وفسد بفساده كل شيء يشتمل عليه ذلك الهواء . وسكرها جيد وشرها كثير لا بأس به ، وكل طيب يحمل الى الاهواز فانه يستحيل وتذهب رائحته ويبطل حتى لا ينتفع به . انظر : يا قوت الرومي الحموي ، معجم البلدان ، (بيروت : دار صادر ودار بيروت ، ١٩٥٥) ج ١ : ٢٨٥-٢٨٦ .

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ١ : ١٤١-١٤٢ ، وص ١٣٥ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢٨٩: ٥ و البيان والتبيين ، ١ : ٣٤ . وينافي هذا القول ، ما نسبته الجاحظ الى الشعبية في سهولة لغة اهل فارس واهل مرو واهل قصة الاهواز . انظر : البيان والتبيين ، ٣ : ١٣ .

الفصل الرابع

=====

الروم

=====

مناقب الروم :

عَدَّ الجاحظ الروم من الامم المعتمدة* التي فيها الاخلاق والآداب والحكم والعلم^(١) وقد لخص مناقبها بقوله :

"... ثم ملنا الى الروم فوجدناهم اطباء وحكما ومنجّمين ولهم اصول الليعون وصناعة القرسطون وكيان الكتب ، وهم الغايات في التصوير ، يصور مصورهم الانسان حتى لا يفادر شيئا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره شابا وان شا' كهلا وان شا' شيخا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره باكيا او ضاحكا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يجعله جميلا ناعما عتيقا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخجل وبين المبتسم والمستعبر وبين ضحك المسرور وضحك الهازي* وضحك المتهدّد ، فيركب صورة في صورة وصورة في صورة وصورة في صورة . ثم لهم في البناء ما ليس لغيرهم ومن الخراط والنجر والصناعة ما ليس لسواهم . ثم هم مع ذلك اصحاب كتاب وملة . ولهم بعد في الجمال والحساب والقضا* في النجوم والخط والنجدة والرأى وانواع المكيدة ما لا ينكر ولا يجحد ."^(٢)

ومن مناقب الروم ايضا فضيلة الحنين الى الاوطان . وقد دلّ الجاحظ على ذلك بقوله في ملك الروم ، الاسكندر :

" وكان الاسكندر الرومي جال في البلدان واخرب اقليم بابل وكَنَزَ الكوز... فمرض بحضرة بابل ، فلما اشفى اوصى الى حكماة ووزرائه ان تحمل رُمته في تابوت من ذهب ، الى بلده ، حبا للوطن... فهو* الاولك الجبابرة الذين لم يفتقدوا في اغترابهم نعمة ، حتوا الى اوطانهم

(١) الجاحظ ، البيان ، ١ : ١٣٧ و ٣٨٤ .

(٢) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ، ص ٩٨ - ٩٩ .

ولم يؤثروا على تربيتهم وساقط رؤوسهم شيئا من الاقاليم المستفادة
بالتغازي والمدن المفتوحة من ملوك الام (١).

ويبدو للدارس ندرة في ذكر اسما ملوك الروم ، الذين يتمتعون بالمناقب
والحسان ، كما فعل الجاحظ في كلامه في ملوك الفرس ، ولعل ذلك مرده الى عدم
العام الجاحظ باللغة الرومية وبتاريخ الروم فضلا عن حالة الحرب بين العرب والروم .
وباستثناء ملاحظة الجاحظ السابقة في الاسكندر لانهثر سوى على النص التالي الذي
يعكس اعجاب الجاحظ بما لدى " ملك الروم " من دراية في الحرب . قال :

" قال ابو الحسن عن سلمة بن خطاب الازدي : قال : لما تشاغل
عبد الملك بن مروان بمحاربة مصعب بن الزهير ، اجتمع وجوه الروم السبي
ملكهم فقالوا له : قد امكنتك الفرصة من العرب ، بتشغل بعضهم مع بعض ،
لوقوع بأسهم بينهم . فالرأى لك ان تغزوهم الى بلادهم فانك ان فعلت
ذلك بهم نلت حاجتك ، فلا تدعهم حتى تنقضي الحرب التي بينهم —
فيجتمعوا عليك . فنهاهم عن ذلك وخطأ رأيهم ، فأبوا عليه الا ان يغزوا
العرب في بلادهم . فلما رأى ذلك منهم امر بكلبين فحرش بينهما ،
فاقتتلا قتالا شديدا ، ثم دعا بشعلب فخلأه ، فلما رأى الكلبان الشعلب ،
تركا ما كانا فيه ، واقبلا عليه حتى قتلاه ، فقال ملك الروم : كيف تسرون ؟
هكذا العرب ، تقتتل بينها ، فاذا رأونا تركوا ذلك واجتمعوا علينا ،
فعرفوا صدقه ، ورجعوا عن رأيهم (٢) .

كما اشار الجاحظ بالزبأ الرومية (٣) التي استوحيت فكرة الانفاق من تدهيس
اليرابيع . وكذلك كان شأن قومها ، يحاكون اليرابيع بغرض الاحتيال في حروبهم

-
- (١) الملاحظ ان الروم في ادب الجاحظ هم غير اليونان ، راجع البيان ١ : ٨٨
ورسالة " الرد على النصاري " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣١٤ - ٣١٥ ، والنص
المذكور عن الاسكندر من " رسالة في الحنين الى الاوطان " ، المصدر نفسه ، ٢ : ٤٠٩ .
- (٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢ : ١٧٢ - ١٧٣ .
- (٣) ويرى المحقق عبدالسلام هارون ان اغلب القول انها عربية . انظر كتاب الحيوان
٥ : ٢٧٨ ، وكذلك المستشرق شارل بلا ، الذي رأى انها زنبوية التي ملكست
تدمر ، بين ٢٦٧ و ٢٧٢ للميلاد . راجع كتاب التربيعة والتدوير ، تحقيق بلا ،
الفقرة ٦٣ ص ٣٧ .

على أعدائهم ، " بالانفاق والمطامير والمخارق" (١) . ومن جهة ثانية ، صوّر الجاحظ
اعتماد الروم على الخنازير للاستدلال على الوقت . قال :

" . . . ورأينا الروم ونصارى القرى يعرفون ذلك بحركات الخنازير
وبيكورها وغدورها واصواتها ، ولذلك قالوا في وصف الرجل : له وثبة
الاسد ، وروغان الثعلب ، وانسلاّب الذئب ، وجمع الذرة ، ويكـوـر
الخنزير " (٢)

كما لاحظ الجاحظ ان سبي رجال الروم يصلحون لتربية الابل مع العلم ان في
دخول الابل بلاد الروم ، هلاكها . قال :

" واصحاب الابل يرغبون في اتخاذ النوبة والبربر والروم للابل ، يرون
انهم يصلحون على معاشها ، وتصلح على قيامهم عليها . ومن العجب
ان رجال الروم تصلح في البدو مع الابل ، ودخول الابل بلاد الروم هو
هلاكها . " (٣)

وقد اعجب الجاحظ بالاعتناء بالزى عند ملوك العجم - الذين يشتملون الروم -
لما في الاعتناء من تقوية لمعنى السلطان ، في نفوس العامة الذي لولاه " لاكل الناس
بعضهم بعضا ، كما انه لولا المسيم لوشب السماع على " السوام" (٤) . قال :

" . . . ولذلك وضعت ملوك العجم على رؤوسها التيجان وجلست على
الاسرة ، وظهرت بين الفرش . وهل يملأ عيون الاعدا ويرعب قلوب
المخالفين ويحشو صدور العوام الا تعظيم شأن السلطان والزيادة في
الاقدار ، والا الآلات . وهل دواؤهم الا في التهويل عليهم ؟ وهل
تصلحهم الا اخافتك اياهم ؟ " (٥)

-
- (١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٢٧٩ .
(٢) المصدر نفسه ، ٢ : ٢٩٤ . وقارن ايضا بالمصدر نفسه ، ٢ : ٣٥٣-٣٥٤ وص ٦٨ من الرسالة .
(٣) المصدر نفسه ، ٣ : ٤٣٤ .
(٤) الجاحظ ، " رسالة في المعلسين " ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ٤٥ .
(٥) الجاحظ ، البيان ، ٣ : ١١٥ .

تتدرج مثالب الروم الدينية في مفهوم الجاحظ نموذجاً تطبيقياً آخر، لمفهومه في تفاوت حال الامم المعتمدة في الدنيا وحالها في الدين . قال :

" ان الناس يخصّون الدين من فاحش الخطأ وقبيح المقال بمسألة لا يخصّون به سواء من جميع العلوم والآراء والآداب والصناعات . ان الفلاح والصانع والنجار والمهندس والمصور والكاتب والحاسب من كل امة وطمة ، لا تجد بينهم من التفاوت في الفهم والعقل والصناعة ولا من فاحش الخطأ وافراط النقص كالذى تجده في اديانهم وفي عقولهم عند اختيار الايمان ؛ والدليل على ما وصفت لك ان الامم التي عليها المعتمد في العقل والبيان والرأى والادب والاختلاف في الصناعات اربع : العرب والهند والروم والفرس ؛ ومتى نقلتهم من الدنيا الى علم الدين ، حسبت عقولهم مختلة وفطرهم مسترقة " (١)

اما ما وجده الجاحظ في الروم فقد افرد له رسالة خاصة (٢) لخصها بعرض مفهومهم لعيسى عليه السلام الذي يضاد مفهوم الاسلام له . قال :

" ثم هم مع ذلك اجمع ، يرون ان الآلهة ثلاثة : بطن اثنان ، وظاهر واحد ، كما لا بد للمصباح من الدهن والفتيلة والوعاء ، فكذلك جوهر الآلهة . فزعموا ان مخلوقاً استحال خالقاً ، وان عبداً تحوّل ربّاً ، وان حديثاً انقلب قدوماً ، الا انه قتل وصلب بعد هذا وفقد وجعل على راسه اكليل الشوك ثم احيا نفسه بعد موته وانما امكن عبيده من اخذه واسره وسلطهم على قتله وصلبه ليؤاسي ابناؤه بنفسه وليحبب اليهم التشبه به ، ولمستصغروا جميع ما صنع بهم ولئلا يعجبوا باعمالهم فيستكثروها لربهم . فكان عذرهم اعظم من جرمهم ؛ فقلوا انا رأينا باعيننا وسمعنا بأذاننا لما صدّقنا ولا قبلنا ان قوماً متكلمين واطباءً ومنجمين ودهاة وحسابا وكتبة وحذاق كل صنعة يقولون في انسان رأوه يأكل ويشرب ويبول وينجو ويجوع ويعطش ويكتسى ويعمرى ويزيد وينقص ، ثم يقتل بزعمهم ويصلب ، انه رب خالق واله رازق ، وانه قديم غير محدث يسميت الالهة . ويحيى الموتى " (٣)

(١) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ، ص ٩١ .

(٢) هي " رسالة الرد على النصارى " ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ .

(٣) الجاحظ ، " كتاب الاخبار وكيف تصح " ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

وما اخذ الجاحظ في الروم ان شأنها في القتال اثر التدين لم يعد كما كان قبله .

"... أنا قد علمنا ان الروم قبل التدين بالنصرانية ، كانت تنتصف من ملوك فارس ، وكانت الحروب بينهم سجالا (١) فلما صارت لا تدين بالقتل والقتال ، والقود والقصاص ، اعتراهم مثل ما يعتري الجبناء حتى صاروا يتكفون القتال تكلفا . ولما خامرت طبائعهم تلك الديانة ، وسرت فيهم لحومهم ودمائهم فصارت تلك الديانة تعترض عليهم ، وخرجوا من حدود الغالبية الى ان صاروا مغلوبين ."(٢)

كما اخذ الجاحظ على الروم انها اول من ابتدع الخصا مع ما في الخصي من اخلاق مذمومة :

" وما يدل على قلة رحمتهم وفساد قلوبهم انهم اصحاب الخصا من بين جميع الامم ، والخصا اشد المثلة ، واعظم ما ركب به انسان . ثم يفعلون ذلك باطفال لا ذنب لهم ، ولا دفع عندهم . ولا نعرف قوما يعرفون بخصا الناس حيث ما كانوا ، الا ببلاد الروم والحبشة ، وهم في غيرها قليل ، واقل قليل (٣) . ومن اهل الملل من يخصي ابنه ويقفه على بيت العباد ، ويجعله سادنا ، كصنيع الروم . . . وكل خصا في الدنيا فانما اصله من قبل الروم . . . ويعرض للخصي الشر عند الطعام والبخل عليه والشح العام في كل شي ، وذلك من اخلاق الصبيان ثم النساء . . . ويعرض للخصي سرعة الغضب والرضى . . . وحب النسيمة وضيق الصدر بما اودع من السر وذلك من اخلاق الصبيان والنساء . . ."(٤)

- (١) انظر : اشارة ثانية لهذا المعنى في "رسالة في حجب النبوه" ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢٦٨
- (٢) الجاحظ ، "كتاب الاوطان والبلدان" ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٢٦ . وقد تراجع الجاحظ عن هذا الرأي في امة الروم حين قارنها بقبيلة التفرغز التركية . انظر : كتاب الترميز والتدوير ، تحقيق شارل بلا ، ص ٧٧ حيث يقول "صحيح ان ليس في دين الروم القتال ، ولكنها لا تسترق ولا تسلب" .
- (٣) اى لدى الصقالبة والسودان (الحبشان والنوبة والسند) . راجع الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ١١٦-١١٩ .
- (٤) الجاحظ ، "كتاب الرد على النصارى" ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣٢٢-٣٢٣ ، وكتاب الحيوان ، ١ : ١٢٤ و١٣٥ .

وقد رأى الجاحظ ان عادات الروم في زخرفة بيوت العبادة والانفاق عليها
" مذهلة للقلوب ومشغلة دين الخشوع" (١) . وقد اخذ الجاحظ عليهم ايضا نشاطهم
في نشر الزندقة ودم العرب (٢) في المجتمع العباسي ، وانهم كانوا السبب في افساد
الفكر اليوناني . (٣)

-
- (١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٥٦
(٢) انظر المصدر نفسه ، ٤ : ٤٤٧ - ٤٤٨ و" كتاب في الرد على النصاري" ،
رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣٢٠ - ٣٢١ .
(٣) انظر " كتاب في الرد على النصاري " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣١٥ ومقالة طريف
خالد في :

Tarīf Khālīdī, "A Mosquito's wing: Al-Jāhiz on the Progress of Knowledge," in Arabic and Islamic Garland. (London: Islamic Cultural Center, 1977) p. 142.

الفصل الخامس

=====

الترك

=====

مناقب الترك

اشرنا في هذه الرسالة خلال دراسة رأى الجاحظ في الفرس الى ان لفظ الخراسانية يدل على الترك والعرب والفرس ، الموجودين في ذلك الاقليم . وان في قول الجاحظ المذكور " دولة بني العباس عجمية خراسانية " (١) اعترافا بفضل هذه الفئات الثلاث في قيام الدولة العباسية . واما فضل الترك في هذا الشأن فقد دفع الجاحظ الى خط رسالة كاملة سماها " رسالة في مناقب الترك " اكد فيها على ان الترك اصدقا العرب ومواليهم السخرون لنصرة الخلافة ، في محاولة منه لتجاوز واقع التنافر الذي دب بين جند الخلافة حول فضلهم في قيامها . في سبيل ذلك ، استعمل الجاحظ معلوماته الدينية لترسيخ ولاء الترك للعرب الذين جمعوا بين النسب المعنوي الممنوح لهم بالولا ، تحقيقا لقول الرسول " الولا لحة كحمة النسب " (٢) وبين النسب الفعلي الواقع بالمصاهرة :

" . . . والسنة قد نقلت الموالي الى العرب في كثير من المعاني ، لانهم عرب في المدعى ، والعاقلة ، وفي الوراثة . وهذا تأويل قوله : مولى القوم منهم . . . فقد شاركوا العرب في انسابهم والموالي في اسبابهم ، وفضلوهم بهذا الفضل الخاص الذي لا يبلغه فضل . . . " (٣)

-
- (١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٣ : ٣٦٦ .
(٢) اخرج الحديث الحاكم والبيهقي عن ابن عمر وتتمته " لا يباع ولا يوهب " انظر : السيوطي ، صحيح الجامع الصغير وزيادته ، تحقيق محمد ناصر الدين الالباني ، (بيروت : المكتب الاسلامي ، ١٩٧٩) المجلد ٦ ص ١١٧ .
(٣) ويروى من انفسهم : اخرجه البخاري عن انس . المصدر السابق ، ص ٣٧٦ . انظر : الجاحظ ، رسالة في مناقب الترك ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ١٧١-١٧٢ . والذين شاركوا العرب وفضلوهم هم الترك .

ويؤيد ذلك ان كثيرا من اسماة الخلفاء العباسيين هن من الجوارى الاتراك (١) ،
اي ان ولاء الترك لم يكن ولاءا هاشميا لقبيلة مغمورة من قبائل العرب وانما كان ولاءا
”للباب قریش ولصاح عبد مناف ، وهم في سرب بني هاشم ، وهاشم موضع العذار من
خذ الفرس والعقد من لبة الكاعب“ (٢) . ويستطيع الدارس لآراء الجاحظ في الترك
فهم جميع اقواله فيهم في ضوء هذا الفضل السياسي المذكور ، وهو فضل يعكس توجه
الدولة العباسية المتفتح نحو الامم الذي يتجاوز دائرة الولاة الجنسي العربي التي
دائرة الولاة الديني والعسكري (٣) . ولذلك نجد ان الجاحظ بعدما فرغ من تأكيد
الولاة الديني للترك ، بذل جهده في تقصي مناقب الحربية التي تحلق بها
الترك ، واظهارها للوصول الى انهم ليسوا اقل شأنًا من بقية السقاة .

رأى الجاحظ ان الترك قوم انتظموا جميع معاني الفروسية والحرب وانهم
استأثروا بجماع خصال التفوق العسكري (٤) بفضل تمتعهم بقوة الابدان وقوة الانفس .
قال الجاحظ في ذلك :

”... والترك قوم يشدد عليهم الحصر والجثوم ، وطول اللبث والمكث ،
وقلة التصرف والتحرك ، واصل بنيتهم انما وضع على الحركة ، وليس للسكون

(١) انظر : زكريا كسابجي ، الترك في مؤلفات الجاحظ ، (بيروت : دار الثقافة ،
١٩٧٢) ص ١٧١ - ١٨٤ وانظر ايضا : مليحة رحمة الله ، الحالة الاجتماعية
في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة (بغداد : مطبعة الزهراء ،
١٩٧٠) ص ١٤ .

(٢) الجاحظ ، ”رسالة في مناقب الترك“ ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ١٧١ .

(٣) حول مفهوم الجاحظ لسياسة العباسيين الاممية الشاملة ، راجع : فاروق عمر ،
طبيعة الدعوة العباسية ، (بيروت : دار الارشاد للطباعة ،) ص ٢٧٩ .

(٤) ويرى المستشرق فرانز روزنتال ان الترك في نظر الجاحظ يشبهون العرب فسي
القوة الحربية والقيافة . راجع :

Franz Rosenthal, The Technique and Approach of Muslim
Scholarship, (Rome: Pontificium Institutum Biblicum, 1947), p.72.

فيها نصيب ، وفي قوى انفسهم فضل على قوى ابدانهم ، وهم اصحاب
توقد وحرارة ، واشتغال وفطنة ، كثيرة خواطرهم ، سريع لحظهم ، وكانوا
يرون الكفاية معجزة وطول المقام بلادة ، والراحة عقلية ، والقناعة من قصر
الهمة ، وان ترك الغزو يورث الذلة .^(١)

ويذكر الجاحظ تفاصيل اخرى عن الشخصية التركية المحاربة تؤكد ما اشرنا اليه من
انتظامها جميع معاني الغروسيه ، كصدق الشدة والانطلاقة المندفعة والصبر على
العدو السريع ومواصلة السفر والرماية على ظهور الخيل في الحرب والحداقة في
معالجة الغرس^(٢) الى حد انه لو حصلت عمر التركي وحسبت ايامه لوجدت جلوسه على
ظهر خيله اكثر من جلوسه على ظهر الارض .^(٣) فاستحق التركي في رأى الجاحظ
ان يكون " امة على حدة " ،^(٤) فيه جماع خصال التفوق العسكري ، لانه اشد ما يحب الحركة
والانطلاق ، مع قوة في التحمل ، وقدرة ذاتية على تجديد النشاط ، اثر ما يتوقع ان يوهنه
لدى سائر المقاتلة . وقد عبر الجاحظ عن هذه الخاصة في الترك ، بقوله الذي يعكس انه
عابثها بنفسه :

" . . . الذى يوجد عند الاتراك عند بلوغ المنزل بعد مسير الليل كله
وبعض النهار ، فان الناس في ذلك الوقت ليس لهم الا ان يتمدوا ويقيدوا
دوابهم . والتركي في ذلك الوقت اذا عابثا او بعض الصيد ابتداء
بالركض بمثل نشاطه قبل ان يسير ذلك السير . . . وترى التركي في تلك
الحال ، وقد سار ضعف ما ساروا : يرى بقرب المنزل عيرا او ظبيا ، او عرض
له ثعلب او ارنجب ، كيف يركض ركض مبتدى مستأنف حتى كان الذى سار
ذلك السير ، وتعب ذلك التعب غيره . . . وانا اخبرك اني قد رأيت منهم
شيئا عجيبا وامرا غريبا : رأيت في بعض غزوات المؤمنين سماطي خيل على
جنيتي الطريق بقرب المنزل ، مائة فارس من الاتراك في الجانب
الايمن ومائة من سائر الناس في الجانب الايسر ، واذا هم

-
- (١) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٦٥ .
(٢) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢٠٢ - ٢٠٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ٣ : ٢٠٦ .
(٤) لان التركي هو الراعي والسائس والرائض والنخاس وهو البيطار وهو الفارس ، راجع :
المصدر نفسه ، ٣ : ٢٠٧ .

قد اصطفوا ينتظرون مجي' المؤمن ، وقد انتصف النهار واشتد الحر .
فورد عليهم وجمع الاتراك جلوس على ظهور خيولهم الا ثلاثة او اربعة ،
وجميع تلك الاخلاط من الجند قد رموا بنفوسهم الى الارض الا ثلاثة
او اربعة . فقلت لصاحب لي : انظر اى شي' اتفق لنا . اشهدان المعتصم
كان اعرف بهم حين جمعهم واصطنعهم . (١) .

كما عبر عن خصائصهم النفسية حين ذكر ان الوحدة الفكرية وسرعة البداهة
تربطان بين قلوبهم جميعا على هدف تنظيمي واحد :

" . . . والاتراك اذا صاقوا جيشا ان كان في القوم موضع عورة ، فكلهم قد
ابصرها وعرفها ؛ وان لم تكن هناك عورة ولم يكن فيهم مطمع ، وكان السراى
الانصراف ، فكلهم قد رأى ذلك الرأى وعرف الصواب فيه . وخواطرهم

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ١٦١ رسالة في مناقب الترك ، رسائل
الجاحظ ، ج ٣ : ٢٠٧-٢٠٨ ، وج ١ : ٦١-٦٢ . ويشير الجاحظ بذلك
الى استقدام المعتصم الترك باعداد كبيرة الى سامرا سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م ،
وذلك لضيق بغداد على عسكره . انظر : احمد بن شاکر الكتبي ، فوات الوفیات ،
تحقيق احسان عباس (بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٤) ج ٤ : ٤٩ . ويرى
كاتب مادة سامرا في دائرة المعارف الاسلامية ان المعتصم بنى سامرا (بهمن
تكريت وبغداد) خوفا من ثورات جنوده الترك المستأجرين للخدمة في الجيش
العباسي . انظر :

Encyclopaedia of Islam, old edition s.v. "Samarra" by H. Violett.
وكذلك قال المستشرق وليام موير ان المجتمع البغدادي لم يتحمل وجسود
الاتراك ولذلك بنى المعتصم سامرا التي تبعد ستين ميلا الى الشمال من
بغداد ، والتي استمرت عاصمة الخلافة من ٨٣٦ - ٨٩٤ م وذلك لسبعة خلفاء
من بعده ، كانوا يقعون يوما بعد يوم في قبضة من استقدموهم لنصرتهم . راجع :

William Muir, The Caliphate: Its Rise, Decline and Fall.
(Edinburgh, 1915), p. 512-513.

واحدة ، ودواعيهم مستوية باقبالهم معا . وليس هم اصحاب تأويلات
ولا اصحاب تفاخر وتناشد ، وانما شأنهم احكام امرهم ؛ فالاختلاف يقبل
بينهم . (١)

وغير خفي ان الجاحظ من خلال تزكية الترك يهدف الى تشجيع مستشارى الدولة
العباسية على اختيار هذا الصنف المتجاوب في قوته وبساطته لخدمة الخلافة العباسية .
قال :

" والترك قوم لا يعرفون الطق ولا الخلافة ، ولا النفاق ولا السعاية ،
ولا التصنع ولا النسيئة ، ولا الرياء ، ولا البذخ على الاولياء ، ولا البغسي
على الخلفاء ، ولا يعرفون الهدى ، ولم تفسد هم الا هوا (٢)

ومناقب الترك المذكورة ترجع الى كونهم " اصحاب عمد وسكان فياف وارباب
مواش وهم اعراب العجم كما ان هذيل اكراد العرب " . (٣) ومع ان الترك والخوارج
بدويو الاصل ، فان الكفاءة البدنية الحربية للترك فاقت كفاءة الخوارج القتالية ، مضرب
المثل في القوة آنذاك . اى ان بدواة الترك تفوقت على بدواة الخوارج لان الاغراق
في البدواة مدعاة للتفوق والنصر والغلبة (٤) . وقد عبر الجاحظ عن ذلك بلسان احد
امراء الدولة العباسية من حضر مجلس رسول الخليفة المأمون ، بعد ان طرح الرسول
سؤالا على القادة العسكريين : ايجبون ان يلقوا مئة تركي او مئة خارجي في حال
مواجهة قتالية ، فانفرد الامير بقوله :

-
- (١) الجاحظ ، رسالة في مناقب الترك ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٥٥ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٢ - ٦٣ .
(٣) رسالة في مناقب الترك ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٧٠ - ٧١ +
(٤) من الممكن ان يكون ابن خلدون قد تأثر بهذه المقولة وهي واضحة في كتابه
العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ، (القاهرة : بولاق ،
١٢٨٤) ج ١ حين ذكر ان الامم البدوية مهيأة لغلبة غيرها لانها مشبعة بالشجاعة
والقوة التي توفرها البدواة . قال ابن خلدون : " وكذلك كل حي من العرب يلي نعيمها
وعيشا خصبا دون الحي الآخر ، فان الحي المبتدئ يكون اغلب له واقدر عليه اذا
تكافأ في القوة والعدد ، سنة الله في خلقه " فالبدواة في نظره سبب في النصر . راجع
فصل في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضرة ص ١٠٥ وان الامم الوحشية
اقدر على التغلب ، ص ١١٥ - ١١٦ .

"... بل القى مائة خارجي احب اليّ ، لاني وجدت الخصال التي
يفضل بها الخارجي جميع المعاتلة غير تامة في الخارجي ، ووجدتها
تامة في التركي ، ففضل التركي على الخارجي بقدر فضل الخارجي على
سائر المعاتلة... ثم بان التركي من الخارجي بامور ليس فيها للخارجي
دعوى ولا عتلق..." (١)

وقد عبر الجاحظ عن التصاق مفهوم قادة الترك للقوة بما هو ماثل امامهم
في عالم الحيوان والبادية :

"... كان عظماء الترك يقولون للقائد العظيم القيادة : لابد ان تكون
فيه عشر خصال من اخلاق الحيوان : سخاء الديك ، وتحن الدجاجة ،
وقلب الاسد ، وحيلة الخنزير ، وروغان الثعلب ، وختل الذئب ، وصبر
الكلب على الجراحة ، وحذر الغراب ، وحراسة الكركي ، وهذا يسمى
الحمام..." (٢)

وقد تقصّى الجاحظ علّة تفوق التركي واندفاعه في القتال ، فوجد ان للتركي
شجاعة ونجدة ذاتية مستقلة عن العوامل والدوافع التي تثير نجدة المقاتل العربي
وتحمّله ، حتى اذا عرضت له تلك العوامل كانت نجدة مضاعفة وقاتله اشد :

" قال : ورأينا التركي في بلاده ليس يقاتل على دين ولا على تأويل ،
ولا على ملك ولا على خراج ، ولا على عصبية ولا على غيرة دون الحرمة والمحرم ،
ولا على حمية ولا على عداوة ، ولا على وطن ومنع دار ولا مال ؛ وانما يقاتل على
السلب والخيار في يده... فما ظنك بمن هذه صفته ان لواضطهره
احراج او غيرة او غضب او تدين ، او عرض له بعض ما يصحب المقاتل
الصحابي من العلل والاسباب ؟..." (٣)

وقد بلغ اعجاب الجاحظ بهذه الامة ان اضاف لها من المناقب التي كان قد
نسبها من قبل الى العرب واليونان والصين . وهو امر لم نعهده في مواقف الجاحظ التي

(١) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٤١ .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢ : ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٣) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٥٢ .

تميل الى جعل كل امة مخصوصة بلون حضارى معين . والجديد هنا ان الجاحظ لم يحكم للترك بذلك على سبيل الاطســــــــــــــــلاق ، وانما قال ان ذلك مرتبط ويمكن لو كان في بلادهم انبيا وحكما . قال :

" . . . ولو كان في شقهم انبيا وفي ارضهم حكما وكانت هذه الخواطر قد مرت على قلوبهم وقرعت اسماعهم ، لأنسوك ادب البصريين وحكمة اليونانيين وصنعة اهل الصين . " (١)

ولعلنا لا نبعد عن الصواب اذا قلنا ان الترك من بين جميع الامم العجيبة تأتي في نظر الجاحظ في المرتبة الاجتماعية بعد العرب اومع العرب نظرا لشموعها بهذه الخصائص . ولولا النص المذكور اعلاه الذى لحظ فيه الجاحظ امكان التبرك النفسي في مشاركة الامم المعتبرة مناقبها ، لكنا قلنا ان الجاحظ لم يلحظ في الترك سوى خصيصة الفروسية ومعاني الحرب . ولكن الجاحظ ما يلبث ان يعود الى موقفه فسي اختصاص الامم ، فيقرر ان الترك وان كانت مسخرة لانتظام معاني الحرب فان هذا التفوق في منزلة تفوق سائر الامم المعتبرة في الخصلة الاغلب على كل منها . قال :

" . . . ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ، ومقارعة الابطال ، وطلب الفنائم وتدويخ البلدان ، وكانت همهم الى ذلك مصروفة وكانت لهذه المعاني والاسباب مسخرة ومقصورة عليها ، وموصولة بها ، احكموا ذلك الامر بأسره واتوا على آخره وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم وفخرهم وحديثهم وسرهم . فلما كانوا كذلك ، صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة ، واهل الصين في الصناعات ، والاعراب فيما عدونا ونزلنا ، وكآل ساسان في السلوك والرياسة . " (٢)

وكعادة الجاحظ في نسبة الفضائل الى الله ، رأى الجاحظ ان الترك ما كانت لتبلغ هذه المنزلة من الفضل في الحروب لو لم يسخرها الله لذلك المعنى بالاسباب

(١) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٠ .

(٢) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٧١ .

ويقصرها عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور وتحقق تلك المعاني ، كما تصافهم بالحلم والعلم والعزم والصبر والكتان والخبرة بالرجال والبلاد . قال :

” ثم اعلم ان كل امة وقرن وكل جيل وبني اب وجدت لهم قدبرعوا في الصناعات وفضلوا الناس في البيان ، وفاقوهم في الآداب ، وفي تأسيس الملك ، وفي البصر بالحرب ، فانك لاتجدهم في الغاية وفي اقصى النهاية ، الا ان يكون الله قد سخرهم لذلك المعنى بالاسباب ، وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور ، وتصلح لتلك المعاني ؛ . . . وهي معان تشتمل على مذاهب غريبة وخصال عجيبة . فمنها : ما يقضى لاهله بالكرم وبهيبته الهمة وطلب الغاية ، ومنها ما يدل على الادب السديد والرأى الاصيل ، والفطنة الثاقبة والبصيرة النافذة . الا ترى انه ليس بد لصاحب الحرب من الحلم والعلم ، والعزم والعزم ، والصبر والكتان ، ومن الثقافة وقلة الغفلة وكثرة التجربة . ولا بد من البصر بالخيال والسلاح والخبرة بالرجال والبلاد والعلم بالمكان والزمان والمكايد ، وبما فيه صلاح هذه الامور كلها . “ (١)

وقد ارفق الجاحظ ملاحظاته في الترك باستدراك مفاده ان اخلاق التتوكت ليست واقعا نفسيا يصدق على جميعهم وانما هو الاغلب عليهم والاظهر (٢).

(١) المصدر السابق ، ص ٦٢ و ٧٣ .

(٢) انظر : المصدر نفسه ، ص ٧٣ .

انسجاما مع مقولة الجاحظ التي ترى ان " لكل امة نصيبا من النقص ومقدارا من الذنوب . . . وانا يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوي" (١) ، فان الترك ايضا لم تسلم من النقد " لان الاشتغال على جميع المحاسن والسلامة من جميع المساوي" رقيقها وجليلها وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يعرف" (٢) وقد حشد الجاحظ عيوب الترك بقوله :

" . . . والذي يوحش منهم ، الحنين الى الاوطان ، وحب التقلب في البلدان ، والصبابة بالفارات ، والشغف بالنهب ، وشدة الالف للعبادة ، مع ما كانوا يتذكرون من سرور الظفر وتتابعه ، وحلاوة المغنم وكثرته ، وملاعبهم في تلك الصحارى ، وترددهم في تلك المروج ، والا يذهب بطول الفراغ فضل نجدتهم باطلا ، ويصير حدهم على طول الايام قليلا " (٣)

والملاحظ ان الجاحظ في عرض ما اخذه على الترك قد سلك مسلكا تعليميا - ان لم يكن متعاطفا ، مع هذا الجنس الحيوى للخلافة العباسية . اما بالنسبة الى حب تغلبهم في البلدان والصبابة بالفارات ، فقد ردهما الجاحظ الى نزعتهم الحركية الغالبة عليهم :

" ومن حذق شيئا لم يصبر عنه ومن كره امرا فرمته . . . ذلك ان الترك قوم يشدد عليهم الحصر والجثوم ، وطول اللبث والمكث ، وقلة التصرف والتحرك ، واصل بنيتهم انما وضع على الحركة ، وليس للسكون فيهم نصيب . . . " (٤)

واما خصلة الحنين الى الوطن فقد ردها الجاحظ الى شدة مناسبة تركيبهم وبنيتهم للبيئة الجغرافية والاجتماعية في وطنهم قال :

" وانا خصوا بالحنين من بين جميع العجم لان في تركيبهم واخسلاط طبائعهم من تركيب بلدهم وتربيتهم ، ومشاكله مياهم ومناسبة اخوانهم ،

(١) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٣٧ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٦٣ و٦٥ .

ما ليس مع احد سواهم . الا ترى انك ترى البصرى فلا تدرى أبصرى
هو ام كوفي . . . وانت لا تغلط في التركي ، ولا تحتاج فيه الى قيافة
ولا الى فراسة ، ونساؤهم كرجالهم ، ودوابهم تركية مثلهم (١) . . . ومحب
الوطن شي* شامل لجميع الناس . . . ولكن ذاك في الترك اغلب ، وفيها
ارسخ ، لما معها من خاصة المشاكلة والمناسبة ، واستواء الشبه وتكافؤ
التركيب . . . (٢)

كما ان جهل قادة الترك باقدارهم ، وعدم انزالهم المنزل اللائق بهم في فئة
المقاتلة ، ضاعف من حنينهم الى بلدهم وكرههم عندهم المقام :

" ومن اعظم ما كان يدعو الترك الى الشرود ويبعثهم على الرجوع ، ويكره
عندهم المقام ، ما كانوا فيه من جهل قوادهم باقدارهم ، وقلة معرفتهم
باخطارهم ، واغفالهم موضع الانتفاع بهم ، . . . ولم يقنعوا ان يكونوا في
الحاشية والحشوة ، وفي غمار العامة ، ومن عرض العساكر ، وانفوا من ذلك
لانفسهم ، ورأوا ان الضيم لا يليق بهم ؛ وان الخمول لا يجوز عليهم . . . (٣)

بيد ان الجاحظ سرعان ما استدرك بقوله ان خصلة الحنين الى الوطن لم تستمر
في التأجج في نفوس الترك بعد ان " صادفوا ملكا حكما ، وباقدار الناس عليا ، لا يميل
الى سوء عادة ولا يجنح الى هوى ولا يتعصب لبلد على بلد ، يدور مع التدبير حيثما
دار ويقيم مع الحق حيثما اقام " . (٤) ان ذاك تغلبوا على اشواقهم وعاداتهم ، واقاموا
اقامة من قد منح الحظ ودان بالحق ونبذ العادة وآثر الحقيقة ، ورحل نفسه

(١) وقد ذكر الجاحظ ذلك في "كتاب البغال" ، رسائل الجاحظ ، حيث صرح انه دخل
بلاد الترك ووجد كل شي* فيها تركيا . راجع "كتاب البغال" ، رسائل الجاحظ ،

ج ٢ : ٣١٣

(٢) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٦٤ و ٦٣ .

(٣) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٦ .

(٤) المصدر نفسه . ولعل الجاحظ يقصد بذلك الخليفة المتوكل التركي الام . والجدير

بالذكر ان الرسالة هذه كانت في الاساس موجهة الى الخليفة المعتصم لكنها لم

تصل اليه* لاسباب يطول شرحها* ص ٣٦ من الرسالة المذكورة . وقد فسرهما

زكريا كناهجي بعامل خوف الجاحظ من كان حول المعتصم من المتعصبين للقومية =

لقطيعة وطنه وآثر الامة على ملك الجبرية واختار الصواب على الالف * (١)
وقد اخذ الجاحظ على الاترك الضعف الذي اعترى احدى قبائلها وهي
التغزغز (٢) ، وهو ضعف اصابتها في شجاعتها وشهامتها اثر تدينها بالزندقة مماثل لما
اصاب الروم اثر تدينها بالنصرانية . قال :
... والى مثل ذلك صارت حال التغزغز من الترك ، بعد ان كانوا
انجاد هم وحمايتهم وكانوا يتقدمون الخرلخية (٣) ، وان كانوا في العدد

(=) العربية والحاقدين على الترك ما دفع الجاحظ بالانتظار الى حين تبلسغ
سطوة الترك اوجها وكان ذلك في عهد الستوكل . انظر الترك في مؤلفات
الجاحظ ، ص ١٩٨-١٩٩ .

(١) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٧ .
(٢ و ٣) التغزغز والخرلخية قبيلتان من اصل تركي مجاورتان للبلاد الاسلامية ، اى في
منطقة ما وراء النهر ، وكانتا تتكلمان لغة واحدة . وكان على من يريد الوصول الى
بلاد الصين ، المرور ببلاد التغزغز والخرلخية او القرق . وذلك انطلاقا من
فرغانة ، التي تقع شمال نهر سرداريا في مدة شهر للوصول الى بلاد القرق
فالتغزغز . وتستغرق الرحلة منهما الى الصين مدة شهرين . راجع :

Encyclopaedia of Islam, old edition, s.v. "Turks," by W. Barthold
Encyclopaedia of Islam, old. ed., s.v. "Toghuzghuz," by W. Barthold.

ويرى صالح احمد العلي في تحقيقه لرسالة الجاحظ "الوطان والبلدان" ان
الخرلخية هو الاسم الذي اطلقه العرب على قبيلة قارلوق التركية التي كانت
تسكن اراضي شاسعة شرقي فرغانة . واما التغزغز فالاسم الذي اطلقه العرب
على قبيلة طوغوز اوغوز اى التسعة اوغوز التركية التي سكنت الاراضي الواقعة في
الشمال الغربي من مناطق الخرلخية وتمتد الى بلاد الصين . انظر احمد صالح
العلي ، كتاب البلدان ، (بغداد : مطبعة الحكومة ، ١٩٧٠) مسئلة
من مجلة كلية الآداب ، ص ٤٧١ .

واما زكريا كنجي فقد رأى ان الخرلخية كانوا عبيدا للتغزغز وعصوا عليهم وخرجوا
الى بلاد التركستية ، واستولوا عليهم وقهروا سلطانهم ومنها خرجوا الى بلاد
الاسلام وهم تسع فرق ، في حين بقي الغز د ونهم ثقافة . انظر ايضا :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Karluk," by C.E. Bosworth.

ورأى كنجي ايضا ان التغزغز ليست الا قبيلة واحدة من اثنتي عشرة قبيلة تدعى
بالغز او الغزية وهي من اكبر قبائل الاترك التي تغرّ السلاجقة والعثمانيون (=)

اضعافهم . فلما دانوا بالزندقة - ودين الزندقة في الكف والسلم اسوأ
من دين النصارى - نقصت تلك الشجاعة ، وذهبت تلك الشهامة . . . حتى
اعتراهم مثل ما يعترى الجبناء حتى صاروا يتكلفون القتال تكلفا . . . وخرجوا
من حدود الغالبية الى ان صاروا مغلوبين . (١)

اى ان الجاحظ رأى ان الاثراك المستقدمين من وراء النهر لخدمة الخلافة
لم يكونوا جميعا شجعانا وانه كان يعترى بعضهم الجبن كما تقدم .

(٢) منها ، بيد انه لم يذكر الضعف الذى اشار اليه الجاحظ وانما قال اعتمادا
على معجم البلدان لياقوت الحموى : " ليس في ملوك العالم اشد من رجال
ملك التغرغز ، ولا اجراً منه على سفك الدماء " . راجع : زكريا كسابجي ، التسرك
في مؤلفات الجاحظ ، ص ٣٠-٣٤ . وقد سقى المؤلف الخرخية بالخرلج
ايضا . والجدير بالذكر ان الجاحظ نفسه حين كرر ما اخذه على التغرغز فسي
كتابه التربيع والتدوير (تحقيق شارل بلا) الفقرة ١٣٨ ، ص ٧٧ - نفس
ما ذكره عن الروم اعلاه ، وقال : " فما بال الروم تمنع ان تسترق وان تسلب ولهم
من دينهم قتال ولا جدال ولا مكافحة ولا دفع ؟ "

(١) الجاحظ ، " كتابه في الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٢٦-١٢٧ .

الفصل السادس

=====

الصين

=====

آراء الجاحظ في الصين :

رأى الجاحظ ان اهل الصين قد خصوا من بين جميع الامم ، بالصناعات اليدوية قال :

" فاما سكان الصين فانهم اصحاب السبك والصياغة والافراغ والاذابة ، والاصباغ العجيبة ، واصحاب الخرط والنجر والتصاوير ، والنسج والخط . ورفق الكف في كل شي يتولونه ويعانونه ، وان اختلف جوهره ، وتباينت صنعة ، وتفاوت ثمنه . (١)

وقال الجاحظ ان هذا الفضل ما فتحه الله على سكان ذلك الاقليم ، انسجاما مع نظرت التي ترى اختصاص امة ما يعود الى كونها مسخرة من الله بعلة واسباب للوصول الى ذلك الواقع السيز . قال :

" . . . الا ترى ان اهل الصين والتبت ، حذاق الصناعات ، لها فيها الرفق والحذق ، ولطف المداخل ، والاتساع في ذلك ، والغوص على غامضه ومعينه ، وليس عندهم الا ذلك . فقد يفتح لقوم في باب الصناعات ولا يفتح لهم في سوى ذلك . . . ثم اعلم بعد ذلك كله ان كل امة وقسور وجيل ونياب وجدتهم قد برعوا في الصناعات ، وفضلوا الناس فسي البيان ، اوافقهم في الآداب ، او في تأسيس الملك . . . فانك لا تجدهم في الغاية وفي اقصى النهاية ، الا ان يكون الله تعالى قد سخرهم لذلك المعنى بالاسباب ، وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور وتصلح لتلك المعاني . لان من كان متقسم الهوى ، مشترك الرأي ، متشعب النفس ، غير موثر على ذلك الشيء ، ولا مهياً له ، لم يحذق من تلك

(١) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ٢١٥ - ٢١٦ . وفي رأى الجاحظ ان اهل الصين مقدمون على الروم في هذه الصناعات . راجع كتاب التربيع والتدوير ، تحقيق شارل بلا ، الفقرة ٦٤ ، الصفحة ٣٧ .

الاشياء شيئا باسره ، ولم يبلغ فيه غايته ، كأهل الصين في الصناعات ،
واليونانيين في الحكم والآداب (١)

اى ان واقع الفضل لامة ماله وجهان : الوجه الالهي الذى يقسم ذلك
الفضل فيفتح بابه لأمة دون غيرها ، والوجه البشرى الذى يمثل الاستعداد النفسى
الارادى القابل لذلك الحكم الالهي . ولكن باب الصناعات الذى فتح لليونان
وللصين لم يبلغ طابع الحكمة لدى اليونان على انه الاغلب عليهم في حين هو الطابع
الوحيد الغالب على اهل الصين ، لانه في مفهوم الجاحظ لم يفتح لهم فضل غير ،
لان اهل اليونان مسخرة لتكون اهل حكمة ، واهل الصين مسخرة لتكون فعلة : قال :

... " فاليونانيون يعرفون العلل ولا يباشرون العمل ، وسكان الصين
يباشرون العمل ولا يعرفون العلل ؛ لان اولئك حكما ، وهو لا فعلة . " (٢)

وقد استدرك الجاحظ على حكمه التعميمي الذى اطلقه في اختصاص اهل الصين
بالصناعات حين ذكر ان ذلك لا يلزم جميعهم ان يكونوا فعلة وحذاقا بالصناعات ، ولكن
ذلك هو الاغلب عليهم والاعم والاظهر :

" وليس في الارض كل تركي كما وصفنا ، كما انه ليس كل يوناني حكيما ، ولا كل
صيني حازقا . . . ولكن هذه الامور في هؤلاء اعم واتم ، وفيهم اظهر
واكثر . " (٣)

وواضح من استدراك الجاحظ اعلاه انه ان كان ينطبق على الامم المعتبرة التي
فتح امامها اكثر من فضل واحد ، ثم غلب عليها فضل منها ، فان ذلك غير واضح مع
الصين الذين لم يفتح امامهم سوى فضل واحد كما بين الجاحظ .
وتجدر الاشارة الى ان الجاحظ لم ينف مقولة السودان في معرض فخرها على
البيضان ، ان اهل الصين يعدون من السودان . (٤) كما ان الجاحظ اورد مقولة لمس

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٦ وايضا : رسالة في مناقب الترك ، رسائل الجاحظ ،

٣ : ٢١٣ - ٢١٤ .

(٢) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٢١٦ .

(٣) الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ٢١٩ .

(٤) الجاحظ ، " رسالة في فضل السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢١٦ .

دخل بلاد الصين من تجار التبت ، مشيرين الى السرور الذي اعتراه طيلة مكوثه فيها ، قال :

" ويزعم تجار التبت من قد دخل الصين والزابج (١) وتلب تلك الجزائر
وتقب في البلاد ان كل من اقام بقصبة تبت ، اعتراه سرور لا يدري ما سببه
ولا يزال متبسما ضاحكا من غير عجب حتى يخرج منها . . . " (٢)

وبعد ، فان الجاحظ لم يتناول اهل الصين بالنقد وذلك في جميع
كتابه التي وصلتنا .

(١) الزابج اسم جزيرة قرب الصين وهي تعرف اليوم بسومطره . ذكر المستشرق غابرييل
فيراند في دائرة المعارف الاسلامية قول ابن خردادبه عنها وهوان ملكا يدعى
اسحق بن عمران المتوفى ٩٠٧م كان يحكمها ويحكم " كله " وان جزيرة الزابج
كانت مشهورة بالكافور . كما نقل المستشرق المذكور قول الادريسي (١١٥٤م) ان
سكان جزر الزابج كانوا يأتون الى بلاد الزنج بواسطة السفن وان لغتهم كانت
واحدة . وخطأ المستشرق قول السعدي ان جزر الزابج وكله وسرنداب (سيلان)
كانت ملوكة من قبل المهرابا . انظر :

Encyclopaedia of Islam, old edition, s.v. "Zabag," by Gabriel Ferrand .

والجدير بالذكر ان الجاحظ عد الزابج في آخر اطواق العمران . انظر
" رسالة في فخر السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢١٨ . كما
انه ذكرها في كتاب التربيع والتدوير بتحقيق شارل بلا ، الفقرة ٦٤ الصفحة ٣٧ .
والزابج تلفظ بفتح الباء وكسرهما ايضا .
(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٧ : ٢٣٠ .

الفصل السابع

=====

اليونان

=====

مناقب اليونان

نسب الجاحظ الى اليونان معرفتها بالحكمة والصناعات . الا انه شدد على غلبة طابع الحكمة عليهم واكتفائهم في صناعتهم بكل ما شأنه ان يجعل الحياة سعيدة " فاستخرجوا الآلات والادوات والملاهي التي تكون جمالا للنفس وراحة بعد الكد وسروا يداوى قرح الهموم" (١). وتفسير غلبة طابع الحكمة عليهم في رأى الجاحظ ان اليونانيين كانوا " اصحاب حكمة ولم يكونوا فعلة . . يرغبون في العلم ويرغبون عن العمل . . فلم يكونوا تجارا ولا صنعا باكتفهم ولا اصحاب زرع ولا فلاحه ومنا وغرس ولا اصحاب جمع ومنع وحرس وكذا" (٢) اما انواع الصناعات فقد ذكرها الجاحظ بقوله :

" . . . وصنعوا من المرافق ، وصاغوا من المنافع كالقرصطونات ، (٣) والقبانات ، والاسطرلابات (٤) ، وآلة الساعات ، وكالكونيكا (٥) ،

(١) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٨ و ٦٧ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) القرصطون ضرب من القبان . انظر : الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٨١ والجدير

بالذكر انه نسب للروم هذه الصناعة . انظر "مقالة الاخبار وكيف تصح" ، ص ٩٨-٩٩ .

(٤) الاسطرلاب او الاسطرلاب مقياس النجوم والكلمة مأخوذة عن اليونانية اسطرلابون

واسطر هو النجم ولايون هو المرأة ٣ نظر الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، تحقيق فان

فلوتن (ليدن : بريل ، ١٩٦٨) ص ٢٣٢ . والكلمة نفسها تفيد عدة آلات تخدم

امورا نظرية وعملية في علم الفلك والآلات لقياس خطوط الطول والعرض والآلات لقياس

الوقت . ولكن الجاحظ اعلاه يقصد بها الآلة التي يعرف بها هيئة الفلك وصورة

الكواكب ، دون سائر الآلات . ان كلمة اسطرلاب حين تستعمل مفردة يقصد بها

المعنى المذكور ، اي الاسطرلاب المسطح الذي يعرف بالعربية بذات الصفائح ؛

من الصفائح او الآلة التي تشمل صفائح واسطوانات لمعرفة صورة الكواكب . راجع :

Encyclopaedia of Islam, new edition, s.v. "Aṣṭurlāb," by W. Hartner.

(٥) الكونيا هي اداة للنجارين يقدرين بها الزاوية القائمة . انظر : الخوارزمي ، مفاتيح

العلوم ، ص ٣٥٥ .

وكالشيزان (١) ، والبركار (٢) ، وكأصناف المزامير والمعارف ، وكالطبيب
والحساب والهندسة واللحن ، وآلات الحرب كالمجانيق ، والمعدات (٣) ،
والرتيلات ، والدبابات (٤) ، وآلة النقاط (٥) ، وغير ذلك مما يطسول
ذكره . (٦)

وقد عدّ الجاحظ اليونان " اصحاب حكمة وفلسفة وصناعة منطق " (٧) مكتفيا بتسمية
اهم حكما اليونان وعلمائهم وكتبهم وبذكر بعض مقولات الحكمة لديهم . اما حكما اليونان
وكتبهم فقال فيها :

- (١) لم اهتم الى معناها . وفي دائرة المعارف الاسلامية اشارة الى معبد شيز
Shiz وهو غير مقصود اعلاه . وقد اخبرني الدكتور ماجد فخري ان الكلمة
المذكورة تحتل تعريفا لان لا وجود للشين في اليونانية ولعل الجاحظ يريد
{ uyo'v (الكيسفون) وهي تعني النير ، آلة الفلاحة والحراث التي توضع على
رأس الثور .
- (٢) آلة هندسية مركبة من ساقين متصلتين تثبت احدهما وتدور حولها الاخرى ترسم
بها الدوائر والاقواس . تسمى بالعامية " البرجل " وهي في الفارسية " بركار " . انظر
حاشية رقم ٦ ، " رسالة في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، تعليق عبد السلام
هارون ، ج ١ : ٦٨ . والخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ٣٥٤ .
- (٣) المرادة منجنيق صغير والمنجنيق من آلات الحروب ترمى بها الحجارة فسي
القتال . انظر : مفاتيح العلوم ، ٣٤٩ .
- (٤) ذكرها الجاحظ في كتاب الحيوان ، ١ : ٨٢ وقال المحقق هارون انها آلة تتخذ للحرب
تدفع في اصل الحصن فينقبونه وهم في جوفها وانظر الحاشية التالية .
- (٥) الدبابات وآلة النقاط او النقاطات من الآلات المتحركة التي عرفت عند العرب
بعلم الحيل . وكان يوضع في النقطة باب المدفع وباب السيف . انظر : مفاتيح
العلوم ، ص ٣٥٤ . وآلة النقاط هي غير النقطة ، اسم احدى النجوم السيارة .
المصدر نفسه ، ٢١٣ .
- (٦) الجاحظ ، رسالة في مناقب الترك ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٦٨-٦٩ .
- (٧) الجاحظ ، البيان والتهيين ، ٣ : ٢٧-٢٩ .

"... ان كتاب المنطق والكن والفساد ، وكتاب العلوى (١) ، وغير ذلك لارسطاطاليس ، وليس برومي ولا نصراني . وكتاب المجسطي لبطليموس وليس برومي ولا نصراني . وكتاب اقليدس (٢) لاقليدس ، وليس برومي ولا نصراني . وكتاب الطب لجالينوس ، ولم يكن روميا ولا نصرانيا . وكذلك كتب ديمقراط وبقراط وافلاطون ، وهو "اناس من امة قد يادوا وبقيت آثار عقولهم ، وهم اليونانيون ... وقد علمنا ونحن على حداثة أسناننا وتقدم الناس قبلنا ، ان جالينوس قد كان باثنا في طبه وان الارسطاطاليس كان البائن في المنطق" (٣) .

ويعكس النص اعلاه تأكيد الجاحظ على الفرق بين امة اليونان وامة الروم . فالاولى امة يادى ولم يبق سوى آثار عقولها والثانية امة ذات ملك ورثت آثار اليونان الفكرية "لقرب الجوار وتداني الدار" (٤) . ولكن الجاحظ لا يقر بالفضل لامة الروم التي حفظت تراث اليونان من الضياع ، ودفنت كتب اليونان في خزائنها دون ان تنتفع بها ، بل يدين بالفضل الى امة اليونان وان كانت قد انقرضت منذ عصور كثيرة ... (٥)

- (١) هو كتاب الآثار العلوية كما دعاه الجاحظ في كتاب الحيوان ٦ : ٢٨٠ وقد ترجمه يحيى بن عسدى وهو يعرف بـ "De Meteorologica" اى العلم السدى يتعلق بشؤون الرعد والبرق والخسوف والكسوف والحد والجزر ، انظر ابن النديم ،
- (٢) الفهرست (بيروت : مكتبة خياط ١٩٦٤) تحقيق غوستاف فلووجل ، ص ٢٥١ . نسب الجاحظ لاقليدس وجالينوس وبطليموس "علوم الصناعات والارفاق والآلات" ايضا . راجع كتاب الحيوان ١٠ : ٨٠ ولعل كتاب اقليدس هو كتاب النغم السدى يعرف بالموسيقى . انظر ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٦٦ .
- (٣) الجاحظ ، "كتاب في الرد على النصارى" ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣١٤ . وكتاب العثمانية ، ص ٢٦٦ .
- (٤) الجاحظ ، كتاب في الرد على النصارى ، رسائل الجاحظ ، ٣ : ٣١٥ . وقد اشار الجاحظ الى اليونان ايضا في البيان والتبيين ١٤ : ١٨٨ فقال انهم من الامم البائدة من العجم .
- (٥) هذا الاستنتاج رده المستشرق فرانز روزنتال في كتابه :

Technique and Approach of Muslim Scholarship, p. 72-73.

وسا يناقض هذا الاستنتاج ان الجاحظ في "كتاب الرد على النصارى" ج ٣ : ٣١٥ افاد بان الرومان تفاعلوا مع الفكر اليوناني حين اضافوا بعضه الى انفسهم (=)

اما مقولات الحكمة التي ذكرها الجاحظ لفلاسفة اليونان فقد وردت في معرض اشارته بنظام توريث العلم عند فلاسفة اليونان دون المال ، حيث يذكر ايضا مفهومهم لاهية الكتب النافعة ، التي طرحها ديمقراط :

... وكانت فلاسفة اليونانية تورث البنات العين ، وتورث البنين الدين ... وكانت تقول لا تورثوا الابن من المال ، الا ما يكون عوناً له على طلب المال ، واغذوه بحلاوة العلم ، واطبعوه على تعظيم الحكمة ليصير جمع العلم اغلب عليه من جمع المال ، وليرى انه العدة والعتاد ، وانه اكرم مستفاد ... فخير ميراث ورث كتب وعلم ... واما ديمقراط فانه قال : ينبغي ان يعرف انه لا بد من ان يكون لكل كتاب علم وضعه احسد من الحكماء ، ثمانية اوجه : منها الهمة ، والمنفعة ، والنسبة ، والصحة ، والصنف ، والتأليف ، والاسناد ، والتدبير . فاولها ان تكون لصاحبه همة ، وان يكون فيما وضع منفعة ، وان يكون له نسبة ينسب اليها ، وان يكون صحيحاً وان يكون على صنف من اصناف الكتب معروفاً به ، وان يكون مؤلفاً من اجزاء خمسة ، وان يكون مسنداً الى وجه من وجوه الحكمة ، وان يكون له تدبير موصوف . فذكر ان ابقراط قد جمع هذه الثمانية اوجه في هذا الكتاب ، وهو كتابه الذي يسمى " افوريسموا " ، تفسيره : كتاب الفصول . (١)

(=) وحولوا البعض الآخر الى ملتهم. في رأى الجاحظ ان تفاعل الروم مع الفكر اليوناني امر تاريخي لا ينكر، لكنه تفاعل اساء الى الفكر اليوناني الموروث وادخل عليه مقولات الزندقة والدهرية. راجع: كتاب في الرد على النصارى، رسائل الجاحظ، ٣: ٣١٥. واخطأ روزنتال في استبعاده ان يكون الروم قد تفاعلوا مع تراث اليونان، اما قوله ان الجاحظ لا يقر بفضل للرومان، فهو له ما يؤيده في كلام الجاحظ الذي تقدم.

(١) كتاب الفصول لا يقرأ شرحه موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (ت ٦٢٩) والاصح كتابته "افوريسموى" وهي صيغة الجمع وتعني المأثور من الحكمة . وهو —————
aphorism " بالمفرد و" aphorismoι " بالجمع . والنص
اعلاه من كتاب الحيوان ١ : ٩٨ - ١٠١و ١٠٢ . وتجدر الاشارة الى
انه كان لارسطواو " صاحب المنطق " كما يدعوه الجاحظ ، الحظ الا وفر بين علماء
اليونان ، من اشارات الجاحظ الى كتابه " في علوم الحيوان " الذي يقع فسي (=)

ومن مقولات الحكمة لدى اليونان ما ذكره الجاحظ عن مفهومهم للعلم والعمل .

قال :

"... ايهما احسن ؟ قول بقراط (١) مفسرا : العمر قصير والصناعة طويلة والزمان جديد ... ام قول افلاطون مجملا : لولا ان في قلبي انسي لا اعلم تثبيتا ، لا اني اعلم ، لقلت اني لا اعلم ، ام تواضع ارشجانوس (٢) حيث يقول : ليس معي من فضيلة العلوم الا علمي بانني لست بعالم ... وقول ديمقراط عالم معاند خير من عالم منصف جاهل ... ثم انظر في قول ديسيوس (٣) لولا العمل لم يطلب علم ... ثم انظر في قول تومقراط (٤) العلم روح والعمل بدن ... وانظر في قول

(=) تسع عشرة مقالة ترجمها يحيى بن البطريق وذكرها ابن النديم في الفهرست . ويعكس ذلك الاثر البين الذي تركه الفكر اليوناني العلمي في نفوس المفكرين المسلمين . راجع كتاب الحيوان للجاحظ . وفي كتابات الجاحظ تأثر واضح بمفهوم الاخلاط والامزجة الاربعة التي نادى بها الطبيب اليوناني جالينوس بين ١٣٠ و ٢٠١ للميلاد وهي الدم والبلغم والبرودة السوداء والبرودة الصفراء . راجع كتاب البخلاء ص ١٥٤ وكتاب التربيع والتدوير تحقيق بلا ص ٨٣ ، ورسالة في الجد والهزل ، رسائل الجاحظ ج ١ : ٢٣١ - ٢٧٨ ورسالة الجوابات في المعرفة ، المصدر نفسه ، ٤ : ٥٩ . كما يعكس كتاب التربيع والتدوير المذكور ، اهتماما باعلام الموسيقى والفكر لدى اليونان ، انظر الفقرة ١٥٠ ، ص ٨٢ من كتاب التربيع والتدوير .

(١) ورد في كتابات الجاحظ بصيغة ابقراط ايضا وهي المعروفة في المصادر العربية .

(٢) اما ان يكون احد تلامذة سقراط ، ايسخانيس Aischenes فتكون تهجئة عربية غير صحيحة لاسمه الحقيقي المقترح ، او ان يكون كما اقترح شارل بلا ، Arsiganus فتكون تهجئة الجاحظ صحيحة ، وهو المذكور في فهرست ابن النديم .

(٣) قال الجاحظ عنه في كتاب الحيوان - ١ : ٢٨٩ ان ديسيوس " كان مرورا وله نوادر عجيبة ، ما من نادرة الا وهي غرة وعين من عين النوادر " . وقال شارل بلا عنه انه عالم يوناني صاحب مؤلفات شهيرة لعلمي المرب في علم تحويل المواد الى ذهب . ويعرف في الترجمات اللاتينية بـ Rosinus . روسينوس ، الا انه ورد في كتابات الجاحظ بلفظ رسيوس وزسيموس وديسيوس . انظر كتاب التربيع والتدوير ، تحقيق بلا ، ص ٤٦ من الفهرس .

(٤) لم اهتم الى ترجمته .

افليمون (١) : العلم كان من العمل والعمل غاية والعلم رائد . . وقبول
ارسطاطاليمس : ليس طلبتي العلم طمعا في بلوغ قاصيته . . ولكن التمس
ما لا يسع جهله . . ثم انظر في قول مورسطوس (٢) عرفت اكثر القصور
واقل ما يوقف عليه من المبسوط . وقليل الكثير وكثير القليل كثير . .
ثم انظر في قول ما سرجس (٣) : من قصر عن طلب العلم لرغبة او رهبة . .
كان حظه من الرغبة وحظه من الرهبة على مقدار حق الرهبة . (٤)

وان النزعة الجدلية في ادب الجاحظ غير بعيدة عن اعجابه " باللفظ المنطقي " (٥)
اليوناني الذي ذكره في كتاب الحيوان ، وعلمه " بان المقدمات لا بد ان تكون اضطرارية ،
ولا بد ان تكون مرتبة " (٦) وهي اساليب ترجع الى اليونان ، وقد استعملها الجاحظ
في كثير من كتاباته . (٧)

- (١) كاتب اغريقي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد ، وكان معاصرا لبقرط . قال المحقق
عبد السلام هارون في تعليقه على قول الجاحظ ان " افليمون صاحب الفراسة " ان
لافليمون تصنيفا مشهورا في الفراسة خرج من اليونانية الى العربية ، طبع فسي
حلب سنة ١٣٤٧هـ / ١٩٢٩م يقع في خمس واربعين صفحة . انظر الجاحظ ،
كتاب الحيوان ، ٣ : ١٤٦ .
- (٢) مؤلف يوناني له كتابات في الآلات الموسيقية ، لم تحفظ الا عند العرب . انظر
كتاب التربيع والتدوير ، ص ٣٠ من الفهرس .
- (٣) ماسرجس طبيب يهودي من البصرة . ترجم عدة مؤلفات سريانية الى العربية ولم
يكن يونانيا . وقد ورد بلفظ ماسرجويه في كتاب الحيوان للجاحظ ، ٤ : ١٩٢
و ٣ : ٢٧٥ و ٢٢٣ .
- (٤) الجاحظ ، كتاب التربيع والتدوير ، تحقيق شارل بلا ص ٩٨ - ١٠٠ والنص نفسه
في "رسالة التربيع والتدوير" ، رسائل الجاحظ ، (تحقيق حسن السندوي) ،
ص ٢٣٦ - ٢٣٨ .
- (٥) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٩٠ .
- (٦) المصدر نفسه ، ١ : ٧٨ .
- (٧) راجع : فكتور شلحت اليسوعي ، النزعة الكلامية في اسلوب الجاحظ ، (القاهرة ،
دار المعارف ، ١٩٦٤) ص ٩١ - ٩٨ و ١٢٤ . حيث يظهر الاتجاه السوفسطائي
والاتجاه الارسطي وانظر دراسة يوسف فان اس التي يظهر فيها ان آثار الجاحظ
من اوائل المحاولات الكلامية التي تحاكي المنطق اليوناني :

Josef van Ess, "The logical structure of Islamic Theology," s.v.
Logic in Classical Islamic Culture, edited by G.E. Von Grunebaum
(Wiesbaden: Otto Harrassowitz, 1970), pp. 25, 26, 29, 32.

والجاحظ وان عدّ اليونان من الامم البائدة فقد ساواها بالام المعتبرة حين
اشار بفضيلة الحنين الى الاوطان لديها لما تعكسه هذه الفضيلة من طيب عنصر
ونفاة جوهر. قال :

"... وقال بعض الفلاسفة : فطرة الرجل معجونة بحب الوطن . ولذلك
قال بقراط : يداوى كل عليل بعقاقير ارضه ، فان الطبيعة تتطلسع
لهوائها ، وتنزع الى غذائها . وقال افلاطون : غذاء الطبيعة من انجع
ادويتها . وقال جالينوس : يتروح العليل بنسيم ارضه كما تنبت الحبة
ببيل القطر" (١)

(١) "رسالة في الحنين الى الاوطان" ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٣٨٧ و٤٠٧ . وهذا
الرأى لا يناقض قول الجاحظ في كتاب الحيوان الذى ينتقد فيه الجماعات التى
لا تغادر مساكنها الوثبة ذات التربة والماء والهواء الغاسد . انظر كتاب الحيوان
٤ : ٧٠ - ٧٢ .

لا يجد الدارس مأخذا للجاحظ على اليونان الا كونهم يعبدون البروج والكواكب وديانتهم بالدهرية . وقد ذكر الجاحظ ذلك في معرض كلامه عن اشتراك اليونان في "دا" المنشأ والتقليد" الذي لم تسلم منه الامم المعتبرة المعاصرة للجاحظ او البائدة ، تحقيقا لمفهومه في تفاوت حال هذه الامم في الدنيا والدين (١) قال :

"... فقد علمنا جميعا ان عقول اليونانية فوق الديانة بالدهريسة والاستبصار في عبادة البروج والكواكب؛ وعقول الهند فوق الديانة بطاعة البد، وعبادة البهدة... فدا" المنشأ والتقليد، دا" لا يحسن علاجه جالينوس ولا غيره من الاطباء . وتعظيم الكبرياء وتقليد الاسلاف والفردين الآباء والانس بما لا يعرفون غيره ، يحتاج الى علاج شديد والكلام في هذا يطول... (٢)"

ومن يدرس اقوال الجاحظ في الدهرية يلحظ انه لم يقصد دعاة هذا المذهب من المتكلمين المعاصرين له فحسب وانما قصد ايضا اصحاب هذا المذهب من مفكرى اليونان الذين كانوا يقولون بتقديم العالم ويقدمون النفع واللذة على سائر الغايات ويجعلون للفلك ما ليس له . قال :

"... والدهرى الذى ينفي الربوبية... وينكر جواز الرسالة، ويجعل الطينة قديمة، ويجحد الثواب والعقاب ، ولا يعرف الحلال والحرام... ويجعل الفلك الذى لا يعرف نفسه من غيره ، ولا يفصل بين الحديث والقديم... ولا يستطيع الزيادة في حركته ، ولا النقصان من دورانه... ولا الوقوف طرفة عين ولا الانحراف عن الجهة ، هو (٣) الذى يكون به

-
- (١) لان هذه الامم لا تخضع دينها للسقايس العقلية المستحرة من التقليد .
(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٢٦ - ٣٢٨ . وقد اشار الجاحظ الى عبادة اليونان قوة الهياولى وعبادتهم النجوم ايضا في كتاب التربيع والتدوير ، تحقيق شارل بلا ، الفقرة ١٣٤ ، ص ٧٦ .
(٣) "هو" اى الفلك الذى تقدم ذكره .

جميع الأبرام والنقض ودقيق الأمور وجليلها . . . لان الدهرى ليس يرى ان في الارض دينا او نحلة او شريعة او ملّة . . . انما الصواب عنده . . . انه والبهيمة سيان . . . ليس القبيح عنده الا ما خالف هواه وليس الحسن عنده الا ما وافق هواه . وان مدار الامر على الاخفاق والدرك وعلى اللذة والالام ، وانما الصواب فيما نال من النفعة ، وان قتل الف انسان صالح لمنالة درهم ردى . . . (١)

باختصار ، فان الدهرى عند الجاحظ هو الذى " لا يقر الا بما اوجده العيان ، وما يجرى مجرى العيان ، ويستنكر احياء الموتى " (٢) ، ولا يقول بالتوحيد ولا يعترف الا الفلك وعمله ويرى ان ارسال الرسل يستحيل (٣) . وقد اورد الجاحظ مقولة استاذ النظم في الرد على مقولة الدهرية في اركان العالم التي لم تجعل الروح ركنا في تكوين الاشياء (٤) ، كما اورد تعجبه من قول اليونان بالهيولى وعبادتهم لها . (٥) ويلاحظ الدارس ان الجاحظ قد ساوى بين الروم واليونان في مقولتهم بالدهرية ولا يستطيع المرء الجزم ما اذا كان الروم ، الذين افسدوا الفكر اليوناني الذى ورثوه ، هم مصدر القول بالدهرية ام ان اليونان كانوا سببه . (٦)

(١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٧ : ١٢ - ١٣ . ومذهب اللذة او النفع هو ما دعا اليه الفيلسوف اليوناني ابيقور . انظر :

Encyclopaedia of Philosophy, (New York: Macmillan Publishing Co. 1967), s.v. "Epicurus," by P.H. Delacy.

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٤ : ٩٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ٦ : ٢٦٩ وقد انتقد الجاحظ مقولة الدهرية التي تطعن في ملك سليمان وملكة سبا انظر كتاب الحيوان ، ٤ : ٨٥ . كما اخذ عليهم نظرتهم في تأويل المعجزات تأويلا طبيعيا ، كجعلهم الخسف كالزلازل . انظر كتاب الحيوان ، ٤ : ٧٠ - ٧٣ . وفي ذلك تأكيد لما اشرنا اليه مسبقا ان المقصود بالدهرية هنا ، معاصرون للجاحظ ايضا من المتأثرين بالفكر اليوناني .

(٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٤٠ - ٤٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ٥ : ٥٠ . وكتاب التربيع والتدوير ، تحقيق بلا ، فقرة ١٣٤ ص ٧٦ .

(٦) راجع " كتاب الرد على النصارى " ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ : ٣١٥ . ولكن ليس ما يمنع ان يكون بين الروم ، من قال بالدهرية التي تنفي الربوبية .

الباب الثاني

=====

آراء الجاحظ في الاسم غير المعتبرة

=====

الفصل الاول : آراء الجاحظ في الصقالبة

تعد آراء الجاحظ في الصقالبة كما في اصناف السودان ، تطبيقا لمقولة استأذه النظام في الاثر الحتمي للاقليم على الخلق والخلق . ولكن الفرق في معالجة الجاحظ للسودان والصقالبة ان السودان حظيت بفضل لم يتوافر للصقالبة وهو وجود من يدافع عن مناقبهم وانجازاتهم من حيث هم امة مهضومة الحقوق . ويجب ان تفهم المناقب القليلة التي ينسبها الجاحظ الى الصقالبة في ضوء هذا السياق الذي لا يرقى بها الى مصاف الامم المعتبرة ولا الى مرتبة الامم التي تطالب بحقوقها كالسودان وان صدر عن الجاحظ ما قد يفيد الاحتمال الاخير كما سنرى ادناه .

مناقب الصقالبة :

وسمع ان الجاحظ عد الخصاء مثله وقسوة (١) ، فان آراءه في الصقالبة المخصيين عرضها بصيغة الاقرار بواقع لا يمكن تجاهله ، وان كان لا يستسيغه . واولى هذه المناقب هي ان الصقالبة المخصيين مع خروجهم من شطر طبائع الرجال الى طبائع النساء ، لا يعرض لهم التخنيث . . . ورأيت ذلك في الزنج الاقحاح . (٢) فهذه ميزة سجلها الجاحظ للصقالبة على السودان . ومن مناقبهم ايضا ان شجاعة كل صقلي في الرماية تفي بمضرة قائد ضخم (٣) من قادة الروم الذين كانوا سبب خصائهم (٤) . قال الجاحظ :

-
- (١) راجع الجاحظ : كتاب الحيوان ١٠ : ١٢٤ حيث قال : " وحسبك بالخصاء مثله وحسبك بصنيع الخاصي قسوة " .
 - (٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ١٠ : ١٣٦ اي رأى الجاحظ ظاهرة التخنيث في الزنج .
 - (٣) المصدر نفسه ١٠ : ١٢٥ .
 - (٤) قال الجاحظ : وكل خصاء في الدنيا فانما اصله من الروم . المصدر نفسه ١٠ : ١٢٤ .

"... وهذا يدل على مقدار فرط الرغبة في النساء ، وعلى شهوة شديدة للمباذعة ، وعلى انهم قد عرفوا مقدار ما فقدوا وهذه خصلة كريمة ، مع طلب المثوبة ، وحسن الاحدوثة " (١)

ومن مناقب الصقالبة ايضا ان ذكا الصقلي المخصي يفوق ذكا السودانى المخصي . بعبارة اخرى ، فان الخصاء يعطي الصقالبة كما ينقص السودان . قال الجاحظ :

" فاما الخصيان من الحبشان والنوبة واصناف السودان ، فان الخصاء يأخذ منهم ولا يعطيهم ، وينقصهم ولا يزيدهم ، ويحفظهم عن مقادير اخوانهم ، كما يزيد الصقالبة عن مقادير اخوتهم " (٢)

والى جانب كون ذكا الصقلي المخصي يفوق ذكا المخصي من السودان فان الجاحظ يلاحظ ان الصقلي المخصي يفوق الصقلي غير المخصي فيقول :

" ويعرض له ان اخوين صقليين من ام واب ، لو كان احدهما توأم اخيه ، انه متى خصي احدهما خرج الخصي منها اجود خدمة ، وافطن لاسبواب المعاطاة والمناولة ، وهولها اتقن وبها أليق ، وتجده ايضا اذكى عقلا عند المخاطبة ، فيُخَصُّ بذلك كله ، ويبقى اخوه على غثارة فطرته ، وعلى غباوة غريزته ، وعلى بلاهة الصقلية وعلى سوء فهم العجمية . . . فأول ما صنع الخصاء بالصقلي ، تركية عقله ، وارهاف حده ، وشحذ طبعه ، وتحريك نفسه فلما عرف كانت حركته تابعة لمعرفته ، وقوته على قدر ما هيجه . فاما نساء الصقالبة وصبيانهم ، فليس الى تحويل طبائعهم ، ونقل خلقهم الى الفطنة الثاقبة ، والى الحركة السوزونة ، والى الخدمة الثابتة الواقعة بالسوافقة ، سبيل " (٣)

(١) المصدر نفسه ، ١ : ١٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ١ : ١١٩ .

(٣) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ١١٦-١١٧ ولكن الجاحظ ما لبث ان حد من محاسن الصقالبة المخصيين حين نص على انه لا يوجد بينهم " من نفذ في صناعة تنسب الى بعض المشقة وتضاف الى شيء من الحكة ، ما يعرف ببعد الروية والغسوس بادامة الفكرة الا ما ذكروا من نفاذ ثق في التحريك للاوتار وصناعة الدبوق ودعا الحمام الطوري وما شئت من صفات الصناعات " المصدر نفسه ، ص ١١٧-١١٨ .

وكان الجاحظ من خلال هذا النص ، وان اعطى حق الصقالبة من الفضل ، فهو في اقواله هذه لم يستطع ان يتجاوز ما سيذكره في مثالبهم وهواثر الاقليم على عقولهم كما سئرى في حينه . وحين حاول ان يتجاوز ذلك لم يفلح في تعليل بعض مناقبهم الا باقرار علة الخصاء المستحدثة فيهم (١) ، ولعل المحاولة الوحيدة التي انصفتهم كانت بلسان اصناف السودان في رسالة فخرهم على البيضان حين قالوا ان افراط البياض ، كافراط السواد ، ردة فعل طبيعية ازاء عامل جغرافي قاهر لا تدل على نقص عقل ولا سوء فهم (٢).

(١) مع ما استدعته هذه العلة من اقوال غير مبررة في العجم ، الا ان يكون مبعثها تصور الجاحظ انهم مصدر علة الخصاء كما تقدم .

(٢) الجاحظ ، " كتاب فخر السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢٢٥ .

يستطيع الدارس ان يقول ان جميع مثالب الصقالبة حقائق جزئية لسقولة النظام في اثر حتمية الاقليم ذى الحرارة الضعيفة والطبيعة الفاسدة على الخلق والخلق ، فالصقالبة هي الامة التي لم تنضجها الارحام . قال الجاحظ :

" وكان يقول : ان الامة التي لم تنضجها الارحام ، ويخالفون في ألوان ابدانهم ، واحداق عيونهم ، وألوان شعورهم ، سبيل الاعتدال . لا تكون عقولهم وقراءتهم الا على حسب ذلك . وعلى حسب ذلك تكون اخلاقهم وآدابهم ، وشمالهم ، وتصرف همهم في لوهمهم وكرمهم ، لا اختلاف السبك وطبقات الطبخ . وتفاوت ما بين الفطير (١) والخمير ، والمقصر والسجور . وموضع العقل عضو من الاعضاء ، وجزء من تلك الاجزاء . كالتفاوت الذى بين الصقالبة والزنج . وكذلك القول في الصور ومواضع الاعضاء (٢) "

كما قال الجاحظ مدعيا رأى النظام بحثى بن زهير الذى قسم الناس تقسيما لونيا ونسب الى كل لون حظا من العقل :

" . . . فاذا ابيض الحمام كالغصع فمثله من الناس الصقلابي ، فأن الصقلابي فطير خام لم تنضجها الارحام ، اذ كانت الارحام في البلاد التي شمسها ضعيفة . . . وكما ان عقول سودان الناس وحرانهم دون عقول السمر ، كذلك بيض الحمام وسودها دون الخضر في المعرفة والهداية . (٣) "

-
- (١) الفطير ما يختبز من ساعته دون ان يختمر وينضج . والخمير ما ترك حتى ننضج واختمر . والفطير هو الصقلابي . قال الجاحظ في كتاب البرصان والعرجان : " يقول المتطبيعون وناس من المتفلسفين : الصقلابي من لم تنضجها الارحام فهو فطير . " انظر البرصان والعرجان ، ص ٤٤ .
- (٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٥ : ٣٥ - ٣٦ .
- (٣) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ٢٤٥ .

وقد اعتمد الجاحظ مقولة للدهرية لتأكيد واقع الصقالبة المتخلف ، حين ذكر
ان اجيال الصقالبة تمثل الولادة المتوقعة للتفاعل المستمر والمتشبه بطبيعة الماء
والهواء والتربة الفاسدة . قال الجاحظ :

" وقال الصنف الاخر (١) : لانكر ان يفسد الهواء في ناحية من النواحي
فيفسد ماؤه وتفسد تربتهم ، فيعمل ذلك في طباعهم على الايام كما
عمل في طباع الزنج وطباع الصقالبة وطباع بلاد يأجوج ومأجوج . . . (٢)

وقد شبه الجاحظ الصقالبة ، حين تحدث عن الحمر (٣) بصورة القسور (٤)
اما فيما يتعلق بالصقالبة والامم ، فقد قال الجاحظ ان الصقالبة يعترضهم من كسي
البلاء ما لا يعترى السودان (٥) وان الصقالبة ابخل من الروم واقل ذكاء منهم اى انهم
يجمعون الغباء والبخل معا (٦) وكما اشرنا سابقا ، فان " غثارة فطرة الصقلي وغبابة غريزته
وبلاهته " (٧) هي سمات مصاحبة للأفراد غير المخصيين من الصقالبة حسب رأى الجاحظ .

-
- (١) من اصناف الدهرية كما يفهم من سياق الكلام . المصدر نفسه ، ٤ : ٧٠ .
 - (٢) المصدر نفسه .
 - (٣) المصدر نفسه ، ٤ : ٩٨ ، وانظر ايضا : ص ٧٢ . والمقصود بالحمر الروس .
انظر : المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ١٢٢ ولكن المحقق طه الحاجري
فهم ان المقصود بالحمر ، الصقالبة . راجع الجاحظ ، البخلا ، ٢٠٧ .
 - (٤) المصدر نفسه ، ٤ : ٩٨ .
 - (٥) الجاحظ ، كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان ، ص ٣٩ .
 - (٦) الجاحظ ، البخلا ، ١٤٧ و" كتاب فخر السودان على البيضان " ، رسائل
الجاحظ ، ج ١ : ١٩٦ .
 - (٧) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ١١٦-١١٧ .

نعرض في هذا القسم آراء الجاحظ في مناقب السودان ومثالبهم ثم نعرض آراء السودان في انفسهم .

مناقب السودان :

عَدَّ الجاحظ من اصناف السودان الام التالية : (١) الزنج (١) والحباشان والنوبة (٢) والسند (٣) والهند (٤) في حين روى عن السودان انهم يضمن اليهم العرب والصين والقيط والبربر والزايج . ومع ان الجاحظ جعل الهند من السودان غير انه عُدَّ الهند من الام المعتبرة . وقد عرضنا مناقبها ومثالبها في بحثنا حول الهند . ولذلك فسنقتصر على الكلام في اولئك السودان الذين لم يعد هم الجاحظ من الام المعتبرة ونبدأ بالزنج .

من مناقب الزنج طيب افواهها (٥) وطول خطبها (٦) وسهولة لغتها وخفتها (٧) وشدة بطشها (٨) وقد اشار باستعمالها العصي مثلما تفعل العرب في حروبها . وقد قال الجاحظ ان الزنج قبيلتان وهما آيتان في العدد والصبر قال :

-
- (١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ٢٤٥ .
 - (٢) المصدر نفسه ، ١ : ١١٣ و ١١٩ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ١ : ١١٣ .
 - (٤) الجاحظ ، " كتاب البغال " ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٣٥٥ .
 - (٥) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢ : ١٥٤ .
 - (٦) المصدر نفسه ، ٧ : ٢٠٥ .
 - (٧) المصدر نفسه ، ٥ : ٢٨٩ .
 - (٨) المصدر نفسه ، ٢ : ٧٩ .

"... والزنج نوعان : احدهما يفخر بالعدد ، وهم يستون النمل ،
والآخر يفخر بالصبر وعظم الابدان ، وهم يستون الكلاب . واحدهما
" يكيو " والاخر " ينبو " . فالكلاب " تكبو " والنمل " تنبو " . (١)

ومن مناقبهم التي ذكرها الجاحظ السخاء حين قال " ان الله فضلهم بالجود " (٢).
اما الحبشان والنوبة فقد ذكرهما الجاحظ معا ومن مناقبهما ما ذكره من فضل ملوك
الحبشة النجاشي على ايلاف قريش، (٣) فضلا عن تكريمهما الفيلة وتربيتها الخيسل، (٤)
وتداويهما بفرس الهاء من وجع الطحال (٥) . اما امة السند فمن مناقبها استعدادها
الجيد لتقبل الفصاحة العربية (٦) واتقانها شؤون الصيرفة (٧) وحسن اصواتها (٨) ومهارتها
في الطبخ وفي شؤون الصيدلة (٩) .

(١) قال المحقق عبدالسلام هارون انه وجد اضطرابا في رسم هاتين الكلمتين . فمرة
بدئا بالياء ومرة بدئا بالتاء . واقترح ان تكون اللفظتان من الفاظ الزنج . قال :
" فقول الجاحظ فالكلاب تكبو لعل معناه تسمى تكبو بالزنجية . " وفي لسان
العرب ما يشير الى الاقتراح المذكور بان يكون اللفظان اسبي علم وليس
فعلين . ولكن ابن منظور اورد معنى ايجابيا لفعل كبا ونبا ، وهو الارتفاس
والعظمة ، مما يطرح مجددا احتمال استعمالها بصيغة الفعل . انظر الجاحظ ،
كتاب الحيوان ، ٤ : ٣٥ ، ولسان العرب لابن منظور ، مادة كبا .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٧ : ٢٠٥ اما في البخلاء : ١٤٧ فقد ربط
جودهم بقلّة تدبيرهم للعواقب .

(٣) الجاحظ ، " كتاب في الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٢٧ .

(٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ٤٣٥ و ٧ : ١٠١ .

(٥) المصدر نفسه ، ٧ : ١٣٨ و ٢٥١ .

(٦) المصدر نفسه ، ٣ : ٤٣٤ .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) المصدر نفسه ، ٣ : ٤٣٥ .

(٩) المصدر نفسه .

اما مثالب الزنج التي ذكرها الجاحظ فهي مأخوذة من علماء الدهرية (١) ومن مشى بن زهير المعروف بصاحب الحمام (٢) ومن النظام (٣) . فعلماء الدهرية يقولون ان الزنج تقاعست عن ترك البيئة الفاسدة التي تحيط بها حتى صارت صورها تناسب القروود . (٤) اما مشى بن زهير فقد نسب الجاحظ اليه تشبيهه الزنج بالامة التي تعرضت الى عطية شديدة من الطبخ الحرارى ومثلها في عالم الحيوان الحمام الاسود المحترق والغريان الحالكة السواد ، ما يعكس الاثر السلبي لحسرة الشمس الشديدة على الخلق والخلق التي جعلت عقول السودان وحرانهم دون عقول السمر .

وقد روى الجاحظ على لسان ابن زهير قوله ان الزنج شر الناس (٥) . كما نقل عنه رأيه الذي يقرن السواد لدى الناس والحيوان بقلّة المعرفة وسوء الهداية . (٦)

- (١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ٤ : ٧٠ .
- (٢) المصدر نفسه ، ٢ : ٧٩ وقد نقل عنه الجاحظ كثيرا ما يختص بالحمام .
- (٣) المصدر نفسه ، ٥ : ٣٥ .
- (٤) المصدر نفسه ، ٤ : ٧٢ و ٧٠ وقد قال علماء الدهرية : " وقال الصنف الآخر : لانكران يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم فيعسل ذلك في طباعهم على الايام كما عمل في طباع الزنج وطباع الصقالبة وطباع يأجوج ومأجوج وقد رأينا العرب وكانوا اعرابا حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني ."
- (٥) قال : " وان اسود الحمام فانما ذلك احتراق ، ومجاوزة لحد النضج ومثل سود الحمام من الناس الزنج فان ارحامهم جاوزت حد الانضاج الى الاحراق وشيطت الشمس شعورهم فتقيضت . والشعر اذا ادنيه من النار تجعد فان زده تغفل ، فان زده احترق . وكما ان عقول سودان الناس وحرانهم دون عقول السمر كذلك بيض الحمام وسودها دون الخضرة في المعرفة والهداية . والغراب يكون مع ذلك حالكة السواد شديد الاحتراق ويكون مثله من الناس الزنج فانهم شرار الناس وارداً الخلق تركيبا ومزاجا ، كمن بردت بلاده فلم تطبخه الارحام ، او سخنت فاحرقت الارحام . " انظر الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ٢٤٥ و ٢ : ٣١٤ .
- (٦) قال صاحب الحمام : وكل شيء من الحيوان اذا اسود شعره او جلده اوصوفه (=

اما النظام فقد وافق مثنى بن زهير فيما قال حول الاثر السلبي لحرارة الشمس على خلق السودان وخلقهم (١) .

وذكر الجاحظ مثالب اخرى للسودان . فمن مثالب الحبشة والنوبة في رأيه محاولة ملك الحبشة ابرهة في الجاهلية غزو الكعبة . (٢) ومن مثالبها ايضا عجزهما عن بلوغ المستويات الحضارية التي بلغتها سائر الامم المعتمدة وهو في ذلك ينتقد الشاعر حكيم بن عياض الكلبي * (٣) عندما وضع الحبشة ضمن الامم المعتمدة في قوله :

ألم يك ملك ارض الله طرا لاربعة له متميزينا
لحمير والنجاشي وابن كسرى وقيصر غير قول المتمرينا (٤)

فيرد عليه الجاحظ بقوله :

"... فما ادري باى سبب وضع الحبشة بهذا المكان . . . واما النجاشي فليس هو عند الملوك في هذا المكان ، ولو كان النجاشي في نفسه فسوق

(=) كان اقوى لبدنه ولم تكن معرفته بالمحمودة . وزعم ان الحمام الهُدَّاء انما هوفى الخضر والنمر ، فاذا اسود الحمام حتى يدخل في الاحتراق صار مثل الزنجي الشديد البطش ، القليل المعرفة . والاسود لا يجي من البعد لسوء هدايته والابيض وما ضرب فيه البياض لا يجي من الغاية ، لضعف قواه . انظر الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٢ : ٧٩ .

(١) وقد سبقت الاشارة الى قول النظام في حديثنا عن الصقالبة ص ١٠٩ . وانظر كتاب الحيوان ٥ : ٣٥ واما الفارق بين النظام وصاحب الحمام فيمكن في توضيح عناصر التشبيه المعنوية بعملية الطبخ ؛ فامة الزنج هي كالبخز المحترق اى العجين الذى زاد في الاختار وامة الصقالبة هي كالفطير الذى لم يخبز درجة كافية .

(٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٧ : ١٩٩ و ٢١١ .

(٣) حكيم بن عياض المعروف بالاعور الكلبي . شاعر انقطع الى بني امية بدمشق كان يتعصب لليمن على مضر . وروى الجاحظ عنه ان الزنج والنوبة اكرم من بني اسد وذلك في " كتاب فخر السودان " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ١٩٩ فيكون ذكر هذا الشاعر للحبشان ضمن الامم المعتمدة سببا شعوبيا وليس ايمانا بضرورة رد الاعتبار الى امة الحبش وبالتالي السودان كما هو الهدف العام من " كتاب فخر السودان " .

(٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ١٠ : ٣٨٤ .

تبع وكسرى وقصر لما كان اهل ملكته من الحبش في هذا الموضع .
وهو لم يفضل النجاشي لكان اسلامه ، يدل على ذلك تفضيله لكسرى
وقصر . وكان وضع كلامه على ذكر الممالك ثم ترك الممالك واخذ في ذكر
البلوك (١)

ومن المثالب التي ذكرها الجاحظ في العيشة والنوبة ان الخصا يفعل بهم
ما لا يفعله بغيرهم قال :

" فاما الخصيان من الحبشان والنوبة واصناف السودان فان الخصا يأخذ
منهم ولا يعطيهم ، وينقصهم ولا يزيدهم ، ويحط بهم عن مقادير اخوانهم ،
كما يزيد الصقالبة عن مقادير اخوتهم (٢)

ومن مثالب السودان التي ذكرها الجاحظ ما يصيبهم من جزع وبخاصة النوبة
منهم (٣) . واما مثالب السند فهي المثالب التي تصيب غيرهم من السودان حينئذ
يخصون . ويزيد الجاحظ عليها عدم معرفة اهل السند بتربية الخيل ان هم قورنوا بصبيان
العيشة والنوبة . كما اخذ الجاحظ على رجال السند عدم نجاحهم في تعهد البيوت
بالمقارنة برجال الروم (٤) . وقد عد الجاحظ السند من الامم الذليلة لان ظهور
الكبر فيهم ارسخ واعم من ظهوره في الاجناس المعتبرة كالروم والفرس . (٥)

-
- (١) الجاحظ ، المصدر نفسه .
 - (٢) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ١١٩ .
 - (٣) المصدر نفسه ، ٣ : ٤٣٣ .
 - (٤) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ٣ : ٤٣٥ .
 - (٥) الجاحظ ، "رسالة في النبل والتنبيل وذم الكبر" ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٨٢ ،
وكتاب الحيوان ، ٦ : ٧١ . وتجدر الاشارة الى سبب اغفالننا رأى الجاحظ فسي
مثالب القبط في هذا البحث لان الجاحظ نفسه لم يعددهم من السودان ولم ينص
انهم كذلك باستثناء ما سيرد من تأكيد انهم من السودان في كتاب فخر السودان
على البيضان . ولكن استكمالا لعرض آراء الجاحظ في الامم نشير الى ان الجاحظ
رأى ان القبط يتسمون بالغنى ونقص الاحلام بالمقارنة مع رجحان عقول قريش
والعرب . انظر البيان ٣ : ٢٩٥ ورسالة في حجج النبوة ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ :
٢٧٠ - ٢٧٢ .

آراء السودان في انفسهم

غير ان الجاحظ الى جانب ذكره مثالب السودان ومناقبهم ، يعرض علينا ما يقوله السودان في انفسهم وذلك في رسالة فخر السودان على البيضان . وهو — يُلخص ما يقولونه في انفسهم بثلاث نقاط : اولا ان العرب والصين والهند — السودان فضلا عن القبط والبربر والزابع وغيرهم ولذلك فمن حقهم المفاخرة بالانجازات الحضارية المقررة لهذه الامم . قال :

" قالوا : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " بعثت الى الاحمر والا سود . " وقد علمت انه لا يقال للزنج والحبشة والنوبة بيض ولا احمر ، وليس لهم اسم الا السود . فاذا قال بعثت الى الاحمر والا سود ، ولسنا عنده حمر ولا بيض فقد بعث اليانا ، فانما عنانا بقوله " الاسود " . ولا يخرج الناس من هذين الاسمين ، فان كانت العرب من الاحمر ، فقد دخلت في عداد الروم والصقالبة ، وفارس وخراسان . وان كانت من السود ، فقد اشتق لها هذا الاسم من اسمنا ومن العرب لا من البيضان لقرب ألوانهم من ألواننا ، والهند اسفر ألوانا من العرب ، وهم من السودان قالوا : وانتسم ترون كثرة العدد مجدا ، ونحن اكثر الناس عددا وولدا ونحن صنغان : النمل والكلاب (١) ولو عدلتم بالنمل العرب كلها لاربت عليها . فكيف اذا قرنت اليها الكلاب ؟ ثم كيف اذا ضمت اليها الحبشة والنوبة وفزان (٢) ومرو وزغاوة (٣) وغير ذلك من انواع السودان ؟ وانتم لم تروا الزنج الذين هم الزنج قط ، وانما رأيت السبي يجي من سواحل قنبلسة (٤)

(١) انظر كتاب الحيوان ، ٤ : ٣٥ والبيان ، ٣ : ٥١

(٢) فزان احدى مقاطعات ليبيا الثلاث واهلها يتكلمون العربية ولغة البربر وهم على المذهب المالكي . كان عقبة بن نافع قد فتح هذه المقاطعة عام ٤٦ هـ / ٦٦٦ م واصبحت مركزا لتجارة الرقيق . انظر :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Fazzan" by J. Despois.

(٣) زغاوة من امم السودان . انظر المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ١٩١ وانظر ايضا :

Encyclopaedia of Islam, old ed., s.v. "Sūdān" by Maurice Delafosse.

(٤) قال الجاحظ ان الزنج ضربان : قبلية ولنجومية . انظر البيان والتبيين ، ٣ : ٥١ .

وغياضها واورديتها من مهنتنا وسفلتنا وعبيدنا ، وليس لاهل قنبلة جمال ولا عقول . . . ومتى رأيتم من سبي السند والهند قوما لهم عقول وعلم وأدب وأخلاق حتى تطلبوا ذلك فيما سقط اليكم من الزنج ؟ وقد تعلمون ما في الهند من الحساب وعلم النجوم واسرار الطب والخسوط والنجر والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة ، فكيف لم يتفق لكم مع كثرة ما سببتم منهم واحد على هذه الصفة ، او بعشر هذه الصفة ؟ وقالوا : السودان اكثر من البيضان . . . والسودان يعدون الزنج والحيشة وفزان وبربر (١) والقيط والنوبة وزغاوة ومرو والسند والهند والقمار (٢) والديبلا (٣) والصين وما صين . . . وجزائر البحر ما بين الصين والزنج (٤) ملوثة سودانا كسرنديب وكله وامل وزابج . . . فتأملوا قولنا واحتاجنا ، فانا قد رويننا الاخبار وقلنا الاشعار ، وعرفناكم وعرفنا الامم . (٥)

(١) البربر اوسكان المغرب قوم دخلوا في الاسلام بداية القرن الميلادي الثامن (الهجري الثاني) وكانوا اصحاب ميول خارجية ابتداء من ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م من قبائلهم : زواغة التي ساعدت ادريس الاول في تأسيس مملكة فاس . راجع :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Barbers," by G. Yyer.

(٢) القمار بفتح القاف وكسرهما موضع في الهند ينسب اليه العمود القماري .
(٣) الديبلا مذكورة في معجم البلدان لياقوت " ديبلا " بفتح الدال وضم الباء وهسي مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند .
(٤) لعل الاصح ان تكون الزابج ، وهي جزيرة في الصين تعرف بسومطرة . انظر :

Encyclopaedia of Islam, old ed., s.v. "Zābag," by Gabriel Ferrand.

وقد اشار الجاحظ الى هذه الجزيرة في كتاب التربيع والتدوير (تحقيق بلا)
فقرة ٦٤ ص ٣٧ . كما نقل المستشرق المذكور قول ابن خردادبة عنها وهو ان ملكا كان يدعى اسحق بن عمران (ت ٩٠٧ م) كان يحكمها ويحكم " كله " وان جزيرة زابج كانت مشهورة بالكافور .
(٥) الجاحظ ، " كتاب فخر السودان " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٢١٠ - ٢١٣ ، ٢١٥ - ٢١٧ .

أى أن على الأمم أن لا تستدل على مستوى السودان من خلال السببي الذي يصلها منهم ، وإنما من خلال الانجازات الحضارية المسلّم بها للصين والهند والعرب والزابع والقيط. وما دامت العرب من السودان فمن مناقبهم أيضاً نصرة الاسلام^(١). وما أن الهند منهم فإن من مناقبهم معرفة الفلسفة والنظر والثقافة والصبر وعلم الفكر^(٢)، وهي خصائص أمة الهند. وما دامت الزابع منهم ، فمن حقهم الافتخار بكثرتهم وقوتهم^(٣). وما أن القبط^(٤) منهم، فإن من حقهم الاعتداد بكون النبي قد رغب في مآهرتهم^(٥)، فضلاً عن كون إيلاف قریش معتمداً على العلاقات الطيبة مع المقوقس^(٦) عظيم القبط وصاحب الاسكندرية. وما أن السند من السودان فمن حقهم الاعتداد بفضائل السند كالفصاحة^(٧)، واتقانهم شؤون الصيرفة^(٨)، والمعرفة بالعقاقير

(١) الجاحظ ، "كتاب فخر السودان على البيضان" ، رسائل الجاحظ ، ١ : ١٩٢ - ٢٠٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ٢١٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ٢١٨ حيث يذكر أن أهل الزابع أكثر من شطراهل الأرض.

(٤) القبط هو اللفظ العربي لنصارى مصر وكان اليونان يقصدون بهم سكان مصر والنيل؛ وحسب مصادر سامية فإن اللفظ يرجع إلى حفيد للنبي نوح استقر في وادي النيل. وما دار القبط فيقصد العرب بها الذرية النصرانية لقدماء المصريين وقد أوصى النبي محمد بهم خيراً . راجع :

Encyclopaedia of Islam, new ed., s.v. "Kibṭ," by A.S. 'Aṭiya.

(٥) الجاحظ ، "كتاب فخر السودان على البيضان" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢١٨ .

(٦) المقوقس أو عظيم القبط وصاحب الاسكندرية كما يدعوه الجاحظ هو حاكم مصر الذي عينه هرقل عام ٦٣١ م . راجع مقالة القبط المذكورة آنفاً في دائرة المعارف الإسلامية بالانكليزية .

(٧) الجاحظ ، "كتاب فخر السودان" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ١٩٨ .

(٨) المصدر نفسه ، ٢٢٤ - ٢٢٥ .

ومهارتهم في الطهي (١) مع جودة اصواتهم (٢).

ثانياً : ليس ما يمنع ان تجمع امة السودان فضيلتي السخا والذكا ، ولا يجوز ربط سخائهم بقلّة تصورهم للعواقب (٣) . ثالثاً : ان اللون الاسود ليس عيباً فسي السودان وانما هو نتيجة للبيئة ، ففي العرب وغيرهم يظهر اللون الاسود دون ان يحيط هذا اللون من قدرهم . وفي ذلك يقولون :

" . . . ونحن نقول ان الله تعالى لم يجعلنا سودا تشويها بخلقنا ، ولكن البلد فعل ذلك بنا . والحجة في ذلك ان في العرب قبائل سودا كبنو سليم بن منصور . وكل من نزل العرة من غير بني سليم كلهم سود . وانهم ليتخذون الماليك للرعي والسقا . . . ومن الروم نساءهم ، فما يتوالدون ثلاثة ابطن (٤) حتى تنقلهم العرة الى الوان بني سليم . ولقد بلغ من امر تلك العرة ان ظباها ونعاسها وهوامها . . . كلها سود . والسواد والبياض هما من قبيل خلقة البلدة ، وما طبع الله عليه الماء والتربة ، من قبل قرب الشمس وبعدها ، وشدة حرها ولينها . وليس ذلك من قبل سخ ولا عقوبة ، ولا تشويه ولا تقصير . " (٥)

وقد انتهى السودان الى التقرير ان التفاوت اللوني كافرط البياض وافراط السواد والسمة المتولدة بينهما هو كالتفاوت الملاحظ في طبيعة المخلوقات كافة ، فهي هيئاتها ونوازعها وصناعاتها وان ذلك كله ليس تشويها ولا عقابا . قالوا :

" فليس سوادنا ، معشر الزنج ، الا كسواد بني سليم ومن عددنا عليكم من قبائل العرب في صدر هذا الكلام . وما افراط سواد من اسود من الناس ، الا كافرط بياض من ابيض من الناس . وكذلك السمة المتولدة

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه : ١٩٦ .

(٤) ذكر الجاحظ هذه الفكرة في كتاب التربيع والتدوير ، ايضا . تحقيق بلا ، الفقرة ٤٨ صفحة ٣٠ - ٣١

(٥) الجاحظ ، " كتاب فخر السودان على البيضان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢١٩ - ٢٢٠ .

من بينهما ، وكذلك الزى والهيئات ، وكذلك الصناعات ، والمطاعم
والشبهات. (١)

وان ما ذكره السودان من اعتداد بكثرتهم وشدة ابدانهم وجمعهم المعرفة
الى القوة ، يهدف الى تصحيح الصورة الشائعة التي طرحها مثنى بن زهير من
كون السود يمثل القوة الجسدية دون قوة المعرفة (٢) .

-
- (١) الجاحظ ، " كتاب فخر السودان " ، رسائل الجاحظ ، ٢٢٠ وقد ردّ الجاحظ
اثر البلدان وتصرف الا زمان في " كتاب الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ
ج ٤ : ١٠٩ .
- (٢) الجاحظ ، " كتاب فخر السودان " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢٠٣ و ٢١٧ . وراجع
مقولة صاحب الحمام في كتاب الحيوان ، ٢ : ٧٩ و ٣١٤ و ٣ : ٢٤٥ .

الباب الثالث

=====

الخاتمة : بيان مقاييس الجاحظ في الحكم على الامم وتحليل آرائه .

=====

الفصل الختامي

=====

لقد استطاع الجاحظ من خلال حياته الطويلة (١٦٠ هـ / ٧٧٧م - ٢٥٥هـ / ٨٦٩ م) ان يحفظ لنا في كتاباته المتنوعة نظرة العرب الى انفسها من حيث هي امة انتبها محاسن الامم بعد ان اجتمع فيها " فضلا النبوة والملك " (١) دون ان ينكر مسا لسائر الامم المعتبرة من فضل ومناقب ، سواء التي ساندت الخلافة العباسية والتي لم تساندها .

لم يعتمد الجاحظ مقياسا واحدا في نظره الى الامم المعتبرة فهو ثارة يعتمد مقياسا حضاريا بمعزل عن الدين وطورا يعتمد مقياسا دينيا صرفا و احيانا يزاوج بينهما . ونجد المقياسيين متوافرين في كل من امم العرب والروم (٢) والترك وبعض اصناف السودان كالقبط (٣) . كما نجد المقياس الحضارى ضعيفا عند الصقالبة حين خصهم بمستى الرماية وخدمة البيوت فقط . و احيانا يتوافر المقياس الحضارى بقوة ، دون المقياس الديني كما عند الهند والفرس واليونان و احيانا يضمحل المقياس الديني لدى الامم المعتبرة جميعا " حين يرى الجاحظ استواء " في تهافتها في مسألة الدين لانها تشترك جميعا في عدم اعمال الفكر وفي اتباع التقليد في الدين . (٤) ونجد ايضا المقياس الحضارى يقسوى في فكر الجاحظ ، مع تجاوز واضح لمقياس الدين وذلك حين جعل الجاحظ ام الفرس والهند والروم تشارك العرب في المنزلة الحضارية وذلك بفضل ما اسهم كل منها في الحضارة الانسانية ، حتى ولو لم تمت اى منها الى الاسلام بشي . ويدخل في المقياس الحضارى طائفة كبيرة من المناقب والخصائص الايجابية كما مر معنا من اجتماع خصائص خلقية كاجتماع العقول والاخلاق والآداب والاحلام وخصائص عملية كانتظام معانسي الفروسية والحرب واتقان الصناعات وغير ذلك ما سبق . ولقد اقر الجاحظ بالمناقب

(١) اللفظ للجاحظ ، انظر " رسالة في النابتة " ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ : ٢١ .

(٢) لان الروم والقبط اهل كتاب وملة في مفهوم الجاحظ .

(٣) راجع " كتاب الاخبار وكيف تصح " للجاحظ ، المجلة الآسيوية ، ص ٩١ - ١٠٢ .

الحضارية للامم التي لولاها " لقد خس حظنا من الحكمة ولضعف سببنا المسمى المعرفة" (١) ولذلك عدّ المستشرق فرانز روزنتال ، الجاحظ ، رائدا في طرح فكرة الحكمة الخالدة للامم التي تناقلتها الى ان وصلت العرب الذين كانوا في نظر الجاحظ آخر من ورثها (٢) . وارى ان قيمة آراء الجاحظ التي عرضتها في مسألة الامم تكن في هذا الطرح السيكر لموضوع مناقب الامم ومثالبها (٣) في دائرة النثر العربي مما يدل على ممارسة الجاحظ في سائر كتاباته ، البعد الوظيفي الاعلامي للادب وسيلة بناء وتوجيه ؛ وقد رفع ذلك الطرح بعض النارسين الى القول ان مجتمع القرن الهجري الثالث ، التاسع الميلادي ، كان النواة التأسيسية للقرون اللاحقة حيث بلغت مواضيع كثيرة طرقها الجاحظ مرحلة النضج (٤) . فالجاحظ مثلا كان من اوائل الذين طرحوا فكرة التخصص الحضاري وغلبة طابع معين على امة من الامم ، كغلبة طابع البيان على العرب وطابع السياسة على الفرس وطابع الحكمة على اليونان والصناعات على الصين ، مع استواء الجميع في التحلي بقدر مشترك من الفضائل وذلك لاشتراكهم في معنى الانسانية الذي يقع حمدا كما يقع ذما . ولنا ملاحظة في المعاني الحبيدة التي رآها الجاحظ في الامم . فاقواله التي اطلقها في مناقبهم مع استدراكه بانها الاغلب عليهم ، وانها فيهم اعم واتم واظهر واكثر (٥) ، تحتل فيما تحتل وخاصة تلك التي تتحدث في

(١) انظر الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ١ : ٨٥ و ٨٦ .

(٢) المصدر نفسه وانظر ايضا :

Franz Rosenthal, Technique & Approach of Muslim Scholarship, p.71.

(٣) فضلا عن تلقيح الجاحظ النثر العربي بمواضيع جديدة اخرى كالنقد الادبي والجغرافيا وعلم الاجتماع وعلم الحيوان .

(٤) انظر :

Charles Pellat, The Life and Works of Al-Jāhiz, University of California Press, 1969, p. 22

وانظر ايضا: محمد عبد المنعم خفاجي ، ابو عثمان الجاحظ ، (بيروت : دار

الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢) ص ١٨٨ - ١٨٩ و ٢٤٣ .

(٥) انظر الجاحظ ، رسالة " في مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ١ : ٧٣ .

خصائص الام المستقدمة الى دار الاسلام من الجند والموالي والعبيد ، الا تكون مثلية للواقع الاجتماعي لاخوانهم غير المستقدمين للعمل في خدمة الخلافة العباسية . اى انه يجوز ان تكون جماعات الترك المستقدمة الى سامراء تمثل نسبة ضئيلة من المجتمع التركي ، كما يجوز ان يكون افراد الصقلية والزنج الموجودين في المجتمع العباسي لا يعكسون الوجه الايجابي الحقيقي لاخوانهم في بلادهم . ومن الطبيعي ان ذلك كله كان يحتاج من الجاحظ الى اجراء دراسة دقيقة للوصول الى آراء جامعة مانعة . اما فيما يتعلق بمثالب الام فأرى ان ابلغ ما قاله الجاحظ في هذا الخصوص كون الامة تعرف بكثرة الحسنات وقلة المساوي ، فاما ان تبرأ الامة المعتبرة من المثالب ، دقيقة وجليلها ، فهذا ما لا يعرف في نظر الجاحظ (١) . ويلاحظ القارى ايضا ان الجاحظ كان ينظر الى المثالب من الزاويتين المشار اليهما آنفا ، اى الزاوية الحضارية والزاوية الدينية ، حتى نرى الخصلة عنده سيئة بمقدار بعدها عن الاسلام ، كخلصة الزندقة لدى بعض طوائف الترك ، وخلصة عبادة النجوم والكواكب والقسول بالدهرية كما لدى اليونان والروم وخلصة عبادة الاصنام كما لدى العرب والهند وخلصة عبادة النار لدى الفرس ، فضلا عن محاولة ملك الحبشة غزو مكة ، التي عدّها مثلبة صيغت الامة جميعها .

واما اقوال الجاحظ في الارتباط العضوي للناس بمحيطهم الجغرافي من هوا وما وتربة ، فتعد ايضا من المحاولات الاولى من نوعها التي ترى الانسان ابن بيئته . وقد قدر لهذه الاقوال ان يردّها كثير من الجغرافيين من بعده (٢) . والذي يعنيننا هنا ان الجاحظ لاحظ استواء الام في خضوعها الى العوامل الجغرافية المذكورة

(١) الجاحظ "رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة" ، رسائل الجاحظ ،

ج ١ : ٢٧ . وانظر ص ١١ من هذه الرسالة وقارن مع التوحيد في الامتاع ١ : ٧٣ .

(٢) انظر :

Tarīf Khālīdī, "Some classical Islamic views of the city," *Studia Arabica & Islamica*, Festschrift for Ihsān 'Abbas on his sixtieth Birthday. Edited by Wadād Al-Qādi. (Beirut: American University of Beirut, 1981) p. 273.

فللوطن اثر يعمل في طبائع كل امة (١) ، سلبا وايجابا ، بحيث تصلح الناس بمصالح
العوامل الجغرافية وتفسد بفسادها . قال الجاحظ :

"... وعلى قدر اختلاف طبائع الاماكن شاهدنا اللغات والاخلاق
والشبهات ولذلك قالوا : فلان " ابن بجدتها " وفلان " بيضة البلد " ،
يقع ذما ويقع حمدا " (٢)

وقد ظهر اثر صلاح الهواء والترية والماء بأجلى صوره في مكة والمدينة والبصرة ومصر
والشامات (٣) ، مما دفع الجاحظ الى طرح مقولته في تفاضل البلدان وبالتالي تفاضل
الطبقات الاجتماعية المستقرة في هذه البلدان ، كفضل بني هاشم على قريش وفضل قريش
على سائر قبائل العرب التي تفضل بدورها سائر الامم ، فضلا لا يعتد على النسوة
وخصائصها الاخلاقية فحسب وانما على محيطها البيئي الصالح ايضا (٤) . كما ظهر اثر
فساد الهواء والترية والماء في الكوفة (٥) وانطاكية وقصبة الاهواز (٦) ، والاخيرة كانت

-
- (١) اللفظ للجاحظ ، راجع كتاب في الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١١٣
(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ٣ : ٢٩٤ .
(٣) الجاحظ " كتاب في الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١١٣ ، ١٣٨ ، ١٤١ .
وقد ظهر الاثر الايجابي للبصرة ومصر في طول اعمار سكانهما وحسن عقولهما وحذقهما
جميع الصناعات فضلا عن كثرة دورهما في حين ان عامة الكوفة " خراب بياب " انظر
المصدر نفسه ، ٤ : ١٤٢ .
(٤) المصدر نفسه ، ٤ : ١٢١ و ١٢٨ و ١٣٦ و ١٤١ .
(٥) قال الجاحظ ان طبيعة الكوفة فاسدة التربة وخبثثة المغرس والشر كما قال : " وخبرني
من بات انه لم يركواكبها زاهرة قط وانه لم يرها الا ودونها هبوة وكأن في مائهم
مزاج دهن " . انظر الجاحظ " كتاب الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ، ٤ : ١٤٢ .
(٦) انعكس فساد طبيعة الاهواز على حيوانها وانسها حتى ان البخل عمها معا .
انظر البهلاء ، ١٣ .

تفسد مزايا بني هاشم لان تربة الاهواز فاسدة بخلاف تربة مدينة النبي (١). غير انه لا يفهم من ذلك ان الجاحظ اعطى العوامل الجغرافية هذه دورا مطلقا يُعْلَلُ به جميع مظاهر السلوك الاجتماعي السلبي للامم ، او يعزو اليه محاسن الاجناس ، لان ذلك يتعارض مع مفهومه لعملية التكليف الالهي لافراد الامم جميعا ولذلك حرص الجاحظ كما رأينا في كلامه عن مثالب الامم المعتمدة ، الى ابراز عامل آخر غير مادي مسؤول عن وقوعها في الخطأ ؛ ألا وهو فساد الارادة البشرية حين تركز الى "الهوى والتقليد وترضى بالسابق الى القلوب وتذهب مع العصبية والاستسلام للنشأ" (٢). وقد عسى الفساد المذكور الامم غير المعتمدة كالمصقلية والزنج حين التزمتا المساكن الوثية ولسم ترتحلا عنها الى البيئات الصالحة ، فكان تقاعسهما تأكيداً للرأى الجاحظ فيما يرافق لزوم مثل هذه الاماكن من الفشل والنقص . (٣)

وأخيراً لا آخراً ، تجدر الإشارة الى ان الجاحظ مع اعتقاده بتفاضل الامم والبلدان ، فهو لم ينظر نظرة عرقية الى سائر الاجناس من غير امة العرب . وفيما يتعلق بنظرته الى الاثنيات او الاعراق المختلفة المتواجدة في دار الاسلام فهي نظرة تعكس المفهوم الاسلامي للامة الذي يلحظ انصهار عدة اثنيات متمازجة فاعلة في بوتقة واحدة هي مؤسسة الخلافة . وقد ظهر هذا الموقف جلياً فيما عرضنا من اقواله في الامم وخاصة في رسالته في مناقب الترك وعامة جند الخلافة التي كتبها بهدف تأليف قلوب جند الخلافة (٤). وما يؤكد هذا الهدف وتلك الرؤيا التي تعكس السياسة الاممية غير

(١) الجاحظ "كتاب في الاوطان والبلدان" ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) الجاحظ ، "كتاب الاخبار وكيف تصح" ، المجلة الآسيوية ، ص ١٠١ - ١٠٢ . قال الجاحظ : والنسق على التقليد هو الذي ملا خواطرهم وامات قلوبهم ولو كان ذلك من قبل الطالع والتربة لما حسن الامر والنهي ولما جاز الحمد والثواب واللائمة والعقاب ولما كان لا رسال الرسل معنى .

(٣) الجاحظ ، "كتاب في الاوطان والبلدان" ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ : ١٠٩ .

(٤) الجاحظ ، "رسالة في مناقب الترك" ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ٢٩ و ٣٦ و ٨٦ .

القلبية او العرقية للدولة العباسية انتقاد الجاحظ التالي للشاعر المتلمس . فقال :

" ولقد اسرف المتلمس حيث يقول :

احارث انا لو تساط دماؤنا تزايلن حتى لايمس دم دما
واشد سرفا منه قول ابي بكر الشيباني . قال : كنت اسير مع بني عم لبي
من بني شيبان وفيما من موالينا جماعة في ايدي التغالبة ، فضربوا اعناق بني
عمي واعناق الموالي على وهدة من الارض ، فكنت والذي لا اله الا هو ،
ارى دم العربي ينماز من دم المولى ، حتى ارى بياض الارض بينهم ،
فان كان هجينا قام نوقه ولم يعتزل عنه . " (١)

وبعد ، فاننا لانجد الجاحظ في كتاباته ، يعنى بتعريف الامة ، وانما نراه مكثفها
بذكر العوامل الفاعلة في نشوئها والمؤثرة فيها (٢) ، دون الاهتمام بطرح تحديد مباشر لها .
وقد درر الجاحظ هذه العوامل المؤسسة لظهور امة والمقررة لهويتها ، التي
ما قسمه الله من خصائص خلقيّة وخلقّيّة لامة ما (٣) وخصائص

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ٣ : ٦١ .

(٢) كقوله في واقع امة العرب قبل الاسلام ، الذي يرجعه الى تراكم التفاعل الایجابي
المميز بين جملة عوامل جغرافية وخلقّيّة ، حتى صارت هذه العوامل " ولادة اخرى
تناكحوا عليها وتصاهروا من اجلها " اى قامت عندهم مقام حرمة الولادة وفضل الارحام
الماسّة ، تمهيدا للامر المزمع والحادث المتوقع . راجع : الجاحظ ، " رسالة نفسي
مناقب الترك " ، رسائل الجاحظ ، ج ١ : ١١ .

(٣) اى " ما قسم الله تعالى لاهل كل جيزة من الشكل والصورة ومن الاخلاق واللفظة " وهي
خصائص لا ارادية . انظر الجاحظ ، " رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة " ،
رسائل الجاحظ ، ج ١ (١٩٦٤) : ١٠ - ١١ .

البيئة الجغرافية (١) المحيطة بتلك الامة ، فضلا عن ردة الفعل الاختيارية
للالرادة الانسانية (٢) ازاء هذه المعطيات ، الارادة التي يراها العنصر الاهم (٣)
في تمييز امة عن سواها .

(١) اى " ما طبع الله عليه البلدة وما قسم لتلك التربة . . . كما تجد لأهل كل ماء وهواء
وطينة نوعا من الاخلاق والمنظر والزى والصناعة واللغة . " انظر الجاحظ ، المصدر
نفسه ، ص ٦٣ وانظر " كتاب الاخبار وكيف تصح ، " تحقيق شارل بلا ، المجلة
الآسيوية ، ج ٢٥٥ ، ١٩٦٢ ، ص ١٠١ .

(٢) وهذه الارادة غير مسخرة للمعصية او للمفسدة لان الله تأبى على نفسه التيسير
للمعاصي . انظر : الجاحظ ، " رسالة في حجج النبوة " ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ :
٢٤٦ و كتاب الحيوان ، ١ : ١٤١ .

(٣) رأينا ان الجاحظ في حكمه على مناقب الام ومثالبها كان ينطلق من ملاحظته دور
الارادة البشرية وردة فعلها الايجابية او السلبية ازاء المعطيات البيئية والمعنوية
المتاحة امامها ، حتى نجد ، يعزو القسط الاوفر من مثالب الام كافة الى فساد
الارادة وسوء الاختيار اكثر منه الى المحيط الجغرافي . انظر : الجاحظ ، كتاب الاخبار
وكيف تصح ، ص ١٠١ وانظر ايضا : " كتاب الاوطان والبلدان " ، رسائل الجاحظ ،
ج ٤ : ١٣٥ - ١٣٦ و ١٤٢ .

- ١٣ - " من دفاين رسائل الجاحظ : (١) رسالة في اثبات امامة امير المؤمنين علي بن ابي طالب ، (٢) رسالة في تفضيل بني هاشم على من سواهم " ، مجلة لغة العرب ، الجزء ٦ و ٧ (السنة ٩ ، ١٩٣١)
صفحة ٤٩٧ - ٥٠١ و ٤١٣ - ٤٢٠ .

(ب) المصادر العربية عدا مؤلفات الجاحظ :

- ١ - ابن الاثير ، ابو السعادات مبارك بن محمد . النهاية في غريب الحديث . ج ١ ، مصر : المطبعة العثمانية ، ١٣١١ هـ .
- ٢ - ابن حزم ، ابو محمد علي بن احمد . جمهرة انساب العرب . تحقيق ليفي بروفنسال . مصر : دار المعارف ، ١٩٤٨ .
- ٣ - ابن خلدون ، ابو زيد عبد الرحمن بن محمد . العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر . ج ١ (المقدمة) . القاهرة : بولاق ، ١٢٨٤ هـ .
- ٤ - ابن خلكان ، شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد . وفيات الاعيان . ج ٦ ، تحقيق احسان عباس . بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٢ .
- ٥ - البيروني ، ابو الريحان محمد بن احمد . تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مردولة . حيدرآباد الدكن : مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٨ .
- ٦ - الخوارزمي ، ابو عبدالله محمد بن احمد . مفاتيح العلوم . تحقيق ج . فان فلوتن . ليدن : بريل ، ١٩٦٨ .
- ٧ - المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين . التنبيه والاشهراف . بيروت : مكتبة خياط ، ١٩٦٥ . وليدن : مطبعة بريل ، تحقيق م . ج . دوغويه ، ١٩٦٧ .
- ٨ - ياقوت الرومي ، شهاب الدين ابو عبدالله . معجم البلدان . ج ١ . بيروت : دار صادر ودار بيروت ، ١٩٥٥ .
- ٩ - الجواليقي . المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم . القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٦١ هـ .

ثانيا : المراجع .

(أ) المراجع العربية :

- ١ - بلا ، شارل ، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامرا . ترجمة ابراهيم الكيلاني . دمشق : دار اليقظة العربية ، ١٩٦١ .
- ٢ - الحاجري ، طه . الجاحظ حياته وآثاره . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٩ .
- ٣ - خفاجي ، محمد عبد المنعم . ابو عثمان الجاحظ . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢ .
- ٤ - شلحت اليسوعي ، فكتور . النزعة الكلامية في اسلوب الجاحظ . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٤ .
- ٥ - عمر ، فاروق ، طبيعة الدعوة العباسية . بيروت : دار الارشاد للطباعة والنشر ، ١٩٧٠ .
- ٦ - كتابجي ، زكريا . الترك في مؤلفات الجاحظ . بيروت : دار الثقافة ، ١٩٧٢ .
- ٧ - ونسك ، أ . ي . ، ومنسنگ ، ي . ب . المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي . لندن : بريل ، ١٩٦٧ .

- 1- 'Atiya, A.S. S.v. "Kibt!" In The Encyclopaedia of Islam.
New ed.
- 2- Barthold, W. S.v. "Toghuzghuz." In The Encyclopaedia of Islam 1st e
- 3- Beeston, A.F. S.v. "Abraha!" Ibid. New ed.
- 4- Delafosse, Maurice, S.V. "Sūdān!" Ibid. 1st ed.
- 5- Ferrand, G. S.v. "Al-Amīn!" In The Encyclopaedia of Islam.
New ed.
- 6- _____, S.v. "Zābag!" Ibid. 1st ed.
- 7- Khalidi, T. Islamic Historiography. N.Y.: State University of
New York Press, 1975.
- 8- _____, "A Mosquito's Wing: Al-Jāhiz on the Progress of
Knowledge." In Arabic and Islamic Garland. Edited by colleagues,
friends and students of Abdul-Laṭif Ṭibāwī, London, 1977.
- 9- _____, "Some Classical Islamic Views of the City." In Studia
Arabica et Islamica. Festschrift For Ihsān 'Abbas on his
Sixtieth Birthday. Edited by Waḡdā al-Qāḍi, Beirut: American
University of Beirut, 1981, pp. 265-276.
- 10- Le Strange, Guy. The Lands of the Eastern Caliphate. Cambridge
University Press, 1930.
- 11- Lockhart, L. S.V. "Al-Ahwāz!" In The Encyclopaedia of Islam.
New ed.
- 12- Muir, W. The Caliphate, its rise, decline and fall. Edinburgh,
1915.

- 13- Pellat, C. The Life and Works of Al-Jāhiz. Berkeley: University of California Press, 1969.
- 14- _____, S.v. "Al-Djāhiz!" In The Encyclopaedia of Islam. New ed.
- 15- _____, S.v. "Ḥilf al-Fudūl!" Ibid.
- 16- Rocher, L. S.v. "Sutra and Sastra Literature." In The Encyclopaedia of Religion. v. 13, 14. New York: Macmillan Publishing Co., 1987.
- 17- Rosenthal, F. Technique and Approach of Muslim Scholarship. Rome: Pontificium Institutum Biblicum, 1947.
- 18- Van Ess, J. "The Logical Structure of Islamic Theology." In Logic in Classical Islamic Culture. Edited by G.E. Von Grunebaum. Wiesbaden: Otto Harrassowitz, 1970.
- 19- Zettersteen, K.V. S.v. "Al-Abnā'" In The Encyclopaedia of Islam. New ed.